خــــروجُ المصريــين

على الخلفاء والسلاطين

الكتـــــاب: خروج المصريين على الخلفاء والسلاطين/ مصطفى بن محمد نجيب
المـــــؤلف: ابن محمد نجيب، مصطفى
النــــــوع: الثورات
تصميم الغلاف: جيهان متولي
إخــراج داخلي: بثينة عزام
الطبــــــعة: الأولى/ القاهرة ٢٠١٠
عــدد الصفحات: ١٨٦ صفحة
المقــــــاس: ١٤×٢٠
تدمـــــــك:
١- الثورات
٢- مصر - تاريخ
أ- عبد العزيز، هشام (محقق، ودارس)

صرح للنشر والتوزيع

المدير العام: عبود مصطفى عبود
كورنيش المعادي بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندسين (أ) برج (٢) الدور العاشر.
ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(٢+)
البريد الاليكتروني: darsarh@gmail.com
www.dar-sarh.com
رقـم الإيداع: ٢٠١٠/٧٣٣٩
الترقيم الدولي: 978-977-6382-10-7
ديوي ٣٢١,٠٩٤

خروجُ المِصريين

على

الخلفاء والسلاطين

تأليف

مصطفى بنِ محمد نجيب

تحقيق ودراسة

هشام عبد العزيز



إهـــــداء

إلـــى

المصريين الذين يراهن عليهم الجميع.

رغم أنهم لا يعطون معناهم لأحد بيسر

هشام



تقديـــــم

من الطبيعي أن تَتَّحِدَ كلُّ حركاتِ التحرُّرِ والإصلاح في العالم في الهدف، رغم اختلاف المكان أو الزمان، إلا أنه من غير الطبيعي أن تَتَّحِدَ في الأسلوب أو المنهج المُتَّبَع من أجل تحقيق هذا الهدف، ويرجع ذلك قطعًا لاختلاف ظروف كلِّ بلد، وكذا اختلاف كل حركة تحرُّريّة أو إصلاحية.

وهذا الاختلاف هو الذي يحدِّدُ آلياتِ العمل ومنهجه بُغْيَة الوصول إلى الهدف الاستراتيجي بأقل خسارةٍ ممكنةٍ وفي أقلِّ وقتٍ ممكن.

إن هذا المبدأ الهامّ في نظرنا هو ما يعطي لدراسة كل حركة إصلاحية طبيعتَها الخاصة وأسلوبَ تناولها التاريخيّ من قِبَل الباحثين. وهذا المبدأ كذلك هو الذي حدَّد الفروقَ الرئيسية بين حركة مصطفى كامل في مصر أواخر القرن التاسع عشر والسنوات الثماني الأولى من القرن العشرين وبين حركة تركيا الفتاة التي بدأت إرهاصاتُها الأولى في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، إلى أن تُوِّجَتْ ببعض

الانتصارات في أوائل القرن العشرين، وبالتحديد في نفس عام وفاة مصطفى كامل (١٩٠٨م).

في نفس العام الذي وُلِدَ فيه مؤلِّفُنا مصطفى بن محمد نجيب (١٨٦١م) تولّى السلطان عبد العزيز مقاليدَ الخلافة العثمانية في تركيا. ولم يكن الرجلُ على قدرٍ من الكفاءة والجِدِّية التي تؤهله لمعرفة أهمية الرقعة التي يحكمها من العالم، بل كان سلطانًا مستهترًا تابعًا لنزواته وتفاهاته الصغيرة التي أورثت الإمبراطوريةَ العثمانية ديونًا كانت كفيلةً بإيجاد الذرائع لروسيا ودول أوربا للتدخل في أمور الإمبراطورية المترامية الأطراف. كما أن انعدام الجدية من قِبَل هذا السلطان المُستهتِر كان كفيلًا بأن يخلق جوًّا سياسيًّا عامًّا مُعادِيًا لحُكْمِه وباحِثًا عن حلٍّ سياسيٍّ للإمبراطورية الكبيرة بعيدًا عن هذا السلطان.

وكان هذا الحدث الجَلَل في عام ١٨٧٦م، حيث استقدم السلطان عبد العزيز رجلًا ماهرًا ومُثقَّفًا وهو مدحت باشا، الذي رأى أن الحل في التدهور الواضح في أمور الإمبراطورية العثمانية ليس فقط في عزل السلطان عبد العزيز، وإنّما في العمل بالدستور والبرلمان، وهما الفكرتان السياسيتان اللتان رأى مدحت باشا وقتَها فيهما الحلَّ السحريَّ الذي يُمكِّن السلطنة من التقدم، وهو نفس المبدأ الذي

سارت عليه حركة تركيا الفتاة بعد ذلك على مدى ثلث قرن تقريبًا. إلّا أنَّ مدحت باشا لم يكن يستطيع النظر إلى الإمبراطورية العثمانية إلا من خلال سلطانٍ عثمانيّ يستطيع لَمَّ شتات القوميات المتعددة المحكومة بالخلافة الإسلامية ولو بشكلٍ اسميّ.. هذا هو السبب الرئيسي الذي دفع مدحت باشا وأعوانَه إلى تعيين السلطان مراد بدلًا من السلطان عبد العزيز.

لم يمكث مراد في الحكم كثيرًا حتى بدتْ عليه علاماتُ الخلل العقلي وعدمِ الاتزان السياسي، مما دفع مدحت باشا وجماعتَه إلى عزله في نفس العام (مايو ١٨٧٦م)، وتعيين السلطان عبد الحميد في أغسطس ١٨٧٦م. وهو السلطان الذي خيَّبَ آمال مدحت باشا إلى الدرجة التي قدَّم فيها مدحت باشا استقالتَه بطريقةٍ مُهينةٍ للسلطان، اضطرتْ السلطانَ لإعدامه شنقًا في الجزيرة العربية، وقد كان نصّ استقالة مدحت باشا علامةً على المستوى الذي وصلت إليه الحركة الوطنية من يأسٍ من النُّخبةِ الحاكمة التي كانت تملك تصريفَ الأمور في الخلافة العثمانية الشاسعة، وفي نص الاستقالة قال مدحت باشا:

"مــولاي.."

- إن المقصود من إعلاننا النظامات الأساسيةَ هو:

أوّلاً: إلغاء تحكّم القصر المُطْلَق.

وثانيًا: أن نوقظ عظمتكم إلى واجباتكم وأن نوقظ أنفسنا إلى واجباتنا.

وثالثًا: أن نتمّمَ المساواةَ التامّة بين المسلمين والنصارى.

ورابعًا: لنسعى بجدٍّ وراء إصلاح بلادنا.

وقد نشرنا في ثلاثين سنة ما يكفي من الفرمانات والخطوط الهمايونية. وكان نشرها في كلِّ حالٍ مُرافِقًا لحال سياسيّ مُهِمّ، ثمّ ما لبثنا بعد زوال الخطر أن نسينا الأسباب التي حملتنا على نشرها، فلا يظن مولاي أننا أعلنّا النظامات الأساسية لمجرد قفل المسألة الشرقية، إنني تكلمت عن الواجبات، ولابد لذاتكم الشاهانية العالية من أن تعرف واجباتها قبل الجميع؛ ليتمكن الذين حملوا مسؤوليةَ الإدارة من القيام بها، ومن واجباتنا - نحن الوزراءَ - أن نعرف أنه يجب علينا الإقلاعُ عن الرياء والتمليق اللذين سادا مدةَ أربعمائة سنة.

"مــولاي.."

إنني أعتبر ذاتَكم الشاهانيَّةَ السلطانية، لكنني لا أَقدِر أن أجعل ذلك الاعتبار سببًا لتعطيل صوالح وطني؛ فالمسؤولية عليَّ عظيمة، وأخاف ضميري الذي يطلب إليَّ أن أشتغل لصالح وطني، بل أنا أخاف ذلك الإلهَ القادر الذي يحاسبني على أعمالي، فلا تخدعوا نفسَكم، ولا تسيئوا إدراك معنى كلامي، إنني أخاف توبيخات ضميري وتوبيخات السلطنة العثمانية، ولا أخاف غير ذلك، فللعثمانيين واجباتٌ قد اعترفوا بها وقاموا بأعبائها، فمن الواجب علينا أن نقتدي بهم.

إننا حكومةٌ نظاميّةٌ يا مولاي؛ فهل تعرفون معنى (النظامات الأساسية)؟. إن الذي يمنح شيئًا يجب أن يفهمه. إنني لا أطيل الكلام بهذا الشأن مع علمي بأهمية المركز الذي سلمتموني مقاليدَه. إنني عثماني، وفي مركز عالٍ بين أبناء وطني، والواجبات التي ينبغي أن أقوم بها مزدوجة؛ فكما أعترف بواجباتي كعثماني، يجب عليَّ أن أعترف بها كذي منصب؛ فالعثماني الذي لا يُتَمِّمْ واجباته بالنظر إلى وطنه مسؤولٌ إلى ضميره وإلى الأمة أيضًا، إنني أحب أن أفتخر بمسؤوليتي لدى

الأمة، وهو ذا قد مضت تسعةُ أيام وأنتم لا تعترفون بها عرضتُه لكم؛ أي أنكم لا تعطون الفاعلَ الآلاتِ اللازمة للشغل، فالآلات التي أشتغل بها الآن هي لخراب السلطنة وليس لإصلاحها؛ ولذلك أتوسّل أن يُسلَّم منصبي إلى غيري ..... مدحت".

في العام نفسِه الذي عُيِّن فيه السلطان عبد الحميد ١٨٧٦م، كانت مصر تشهد مأساةً سياسيّةً واقتصاديّةً كبرى؛ فقد أعلن الخديوي إسماعيل إفلاسَ مصر في أبريل، وفي ٢ مايو من نفس العام بدأت الوصاية المالية الأجنبية على مصر.. وهو ما لم يستطع الخديوي إسماعيل دفعَه؛ نظرًا للديون التي غرق فيها.. كما لم يستطع السلطانُ عبد الحميد دفعَه نظرًا لمهادنته للدول الأجنبية حتى يستطيع مسايرةَ حركة الإصلاح التي قادها مدحت باشا، والتي استطاع السلطان إجهاضَها بسبب حربه مع روسيا، التي تعلَّل بها لتعليق الدستور الذي كان المطلبَ الأساسي لحركة مدحت باشا الإصلاحية.

في السنوات التالية لذلك من حكم إسماعيل في مصر كانت الحركة الوطنية تَستعد لاستقبال حركة مصر الفتاة التي قامت في بادئ الأمر سريةً ثم أصبحت علنيةً ونشرت مبادئها السياسية عن طريق

جريدتها الذائعة الصيت وقتَها، والتي لم يبق منها ولا عددٌ واحدٌ، وهي جريدة "مصر الفتاة" التي ضمّت في عضويتها أجناسًا شتّى وعقائدَ مختلفةً؛ ففيها اليهود والمسيحيون والمسلمون، كما أنّ فيها مصريين وشوام وأجانبَ، وهذا التنوّع الظاهر في عضويتها هو ما جعلها أكثرَ عمقًا وحماها من التدخّل الحكومي أو الإغلاق والمصادرة في أول ظهورها على الرغم من أن مبادئها كانت أكثرَ جُرْأَةً مما يمكن تحمُّله في ذلك الوقت؛ فقد كانت تنادي باقتسام السُّلْطة وعدمِ تركيزها في يد السلطان أو الحاكم.

عُزل إسماعيل وعُيِّنَ توفيق بدلًا منه في يونيو ١٧٧٩م، ولوحقت جريدة مصر الفتاة، وانفضّ عنها المصريون، وتكاد الحركة تكون قد أُجْهِضَتْ إلّا أنّها تركتْ أرضًا خصبة للإصلاح السياسي والاجتماعي الذي ظهر جَلِيًّا في أعمال إصلاحية على المستوى السياسي والاجتماعي، مثل تأسيس عبد الله النديم (أحد أعضاء مصر الفتاة) للجمعية الخيرية الإسلامية في ١٨ أبريل ١٨٧٩م، والتي كان هدفها نشر التعليم المجّاني بين الصبيان والفتيات غيرِ القادرين على تحمّل أعبائه، وكذلك لا يمكن إغفال دور حركة مصر الفتاة في تقوية

الشعور بالقومية المصرية ودورها في التأسيس للثورة المصرية الكبرى في ١٨٨١م بقيادة أحمد عرابي.

في السنوات التالية من حكم توفيق تعاقبتْ الحكومات بعضُها تلوَ بعض تجارب الصحافةَ التي كانت قد أثبتت أنها سلاحٌ ناجعٌ ومُؤثِّر في عملية الإصلاح السياسي والاجتماعي، وكذا في عملية مُناهضةِ الاحتلال الذي تمكّن من مصر عقب إجهاض ثورة عرابي في ١٨٨٢م، وهو ما أدى إلى إغلاق الكثير من الصحف ومصادرة عدَدٍ آخرَ ليس بقليل، وكذلك الحكم بالنفي والإبعاد على عددٍ كبيرٍ من الصحفيين والمفكرين لم يكن الأفغاني أولَهم، ولن يكون يعقوب صَنُّوع آخرَهم.

نستطيع أن نؤكّد - وإنْ بشيءٍ من الحذر - أن حركة مصر الفتاة كانت علامةً فاصلةً في حركة النضال الوطني في مصر، فقد رأينا - ولأول مرّة في تاريخ الأسرة العلوية - أفرادا أو أمراءَ ذوي شأن مثل الأمير عبد الحليم الذي كان مناصرًا قويًّا لهذه الحركة الإصلاحية، وإن كان السبب وراء ذلك هو السطو المُعْلَن على السلْطة الذي قام به الخديوي إسماعيل بعد رِشْوة السلطان عبد الحميد لكي يجعل الحكمَ

في أبنائه هو بدلًا من أكبر أبناء الأسرة العلوية الذي كان وقتَها هو الأمير عبد الحليم، ثمّ كان مِن بعده الأمير مصطفى فاضل أخو الخديوي إسماعيل وأحدُ الضالعين في حركة تركيا الفتاة.

في السنوات الثلاث الأخيرة من حكم الخديوي توفيق وبالتحديد في ١٨٨٩م تأسست حركة تركيا الفتاة في تركيا، وكان من أهم أهدافها العمل بالدستور المُعَلّق منذ ١٨٧٦م، وهو دستور مدحت باشا.

نشأت الحركة في البداية بين الطلبة، وامتدت لتشمل عددًا كبيرًا من موظفي الدولة.. ولم يكن السلطان عبد الحميد باليقظة التي تؤهّله لكشف هذه الحركة في بدايتها رغم النظام المخابراتي الذي كان يتبعه في أسلوب الحكم، كما لم يستطع مُنجِّمُه الأثير لديه أبو الهدى أن يخبره بها! فالسلطان عبد الحميد لم يكن ليدركَ أن حركة إصلاح أخرى يمكن أن تظهر للنور سريعًا، خصوصًا بعد نفي مدحت باشا وشنقِه في منفاه. فلم يستطع تشمُّمَ خبر هذه الحركة الثورية إلا في سنة ١٨٩٢م، وهو نفس العام الذي توفي فيه الخديوي توفيق وتولى مكانه الخديوي عباس حلمي الثاني ابنُ الثمانية عشر عامًا. في هذا العام قام

السلطان عبدُ الحميد بحملة اعتقالات كبيرة في تركيا شملت كثيرًا ممن تحوم حولهم شبهاتُ الاشتراك في هذه الحركة. وفي هذا العام أيضًا، ونتيجةً لهذه الاعتقالات، استطاع عددٌ كبيرٌ من قيادات الحركة في تركيا الهربَ إلى مناطق متفرقة من العالم وأصدروا عددًا كبيرًا من الصُّحُف التي تُنَدِّدُ بحكم السلطان عبد الحميد، فصدرت صحفٌ في جنيف، وباريس، والقاهرة .. وغيرها. ومن أشهر هذه الصحف وأوسعها انتشارًا وأكثرها تأثيرًا صحيفتا "منشورت" في باريس، و"ميزان" في القاهرة- وهي الصحيفة التي حظيت بكثيرٍ من نقد مؤلفنا مصطفي بن محمد نجيب في المخطوط الذي نحققه في هذا الكتاب.

وصاحب جريدة "ميزان" هو مراد بك الذي هرب- على ما يبدو ضمن من هربوا من تركيا وجاء إلى مصر.

وفي هذه الفترة كان طبيب الخديوي عباس حلمي الثاني هو الدكتور إسماعيل إبراهيم الذي كان رئيسًا لفرع حركة تركيا الفتاة في مصر والذي كان قد تشرّب مبادئها أثناء دراسته في القسطنطينية، وقد كان الخديوي عباس حلمي الثاني مُتعاطِفًا مع هذه الحركة منذ البداية،

وصدرت جريدة "ميزان" ودخلت تركيا عن طريق دوائر البريد الأجنبية التي كانت حرَّة من الرقابة الصارمة في تركيا، ومثَلها في ذلك مثل جريدة "منشورت" التي كانت الحركة تُصدرها من باريس.

وجد السلطان عبد الحميد نفسَه مُحاطًا بسيلٍ من السِّباب والنقدِ اللاذع الذي توجِّهُه حركةُ تركيا الفتاة عبْر صحفها، فحارب هذه الصحف في أماكن طباعتها في باريس والقاهرة.

كان الخديوي عباس حلمي الثاني من مناهضي الاحتلال، وكان يساند مصطفى كامل وإنْ كان بشكلٍ مُستَتِر، وكانت حركة مصطفى كامل المناهضةُ للاحتلال الأجنبي ترى ضمن مبادئها أن مصر ولايةٌ عثمانية بالأساس.. ويبدو أن هذا هو السببُ وراء إبعاد مراد بك وصحيفة "ميزان" عن مصر في ١٨٩٦م، فرحل مراد بك إلى باريس في هذه الصفقة السرية التي تمَّت - على ما يبدو - بين عباس حلمي الثاني والسلطان عبد الحميد، وهذا هو ما يبرر الهجوم الشرس الذي يَشنه مؤلفُنا على حركة تركيا الفتاة رغم أنه من أعمدة الحركة الوطنية في مصر في أواخر القرن التاسع عشر. إن هذا لم يكن ليطلق يدَ الكتاب ورجال الحكم في مصر ضد حركة تركيا الفتاة، لكنه منع المصريين من

مناصرة فرع الحركة في مصر فقط.. ولكنَّ زيارةً قام بها الخديوي عباس حلمي الثاني إلى باريس في نفس العام ورفض فيها مقابلةَ مراد بك في الفندق الذي نزل فيه، فأطلق الأخير ألسنة نقده على الخديوي وحكومتِه مما دفع الخديوي إلى مهاجمة الحركة ومنْع صحفها من دخول مصر.. ويبدو أن هذا المخطوط الذي نحن بصدَدِ تحقيقه واحدًا من أدوات هجوم النظام المصري وقتَها على حركة مصر الفتاة، وهو ما يتأكد بكوْن مؤلفه وكيلَ الإدارة الخارجية بالديوان الخديوي.. ويبدو أن مؤسسة الحكم في مصر قد شَحذت طاقتَها ضد هذه الحركة لدرجة أن إحدى نسخ المخطوط كتب تحت عنوانها: لبعض أفاضل العلماء. مما يُشير إلى أن بعضًا من السياسيين العاملين في مؤسسة الحكم وقتَها قد اشتركوا في تأليف هذا المخطوط وأن مؤلفنا قام فقط- على ما يبدو- بتحرير ومراجعة ما قاموا بكتابته.

إن المتتبع لأحداث هذه الفترة وما تلاها من سنواتٍ لا يمكن أن يُغفل الزيارات المُتعددة لمصطفى كامل زعيم الحركة الوطنية المصرية وقتَها لتركيا، كتلك الزيارة التي قام بها في ٢٧/ ١٠/ ١٨٩٦م للدعاية للقضية المصرية.

وكـــذلك مقالتـــه التـــي نـــشرها في جريـــدة "ريفـــورم" في ١٦/ ٥/ ١٨٩٧م، والتي تعجّب فيها من اهتمام أوربا بحلِّ مشكلةِ احتلال تركيا لليونان وعدم اهتمامها بقضية احتلال انجلترا لمصر.. وهو ما فُهِم على أنه مساندةٌ أو تأييدٌ من قِبَل الحركة الوطنية ومصطفي كامل لاحتلال تركيا لليونان، مما دفع مصطفى كامل للردّ على ذلك في خطبته على مسرح زيزينيا بالإسكندرية في٨/ ٦/ ١٨٩٧، وكانت كلمته عبارةً عن رد على الصحف الإنجليزية التي انتقدت مصر بسبب تعاطفها مع تركيا في حربها ضد اليونان.

يبقى سؤال يطرح نفسَه بشدة، ما السبب وراء ارتماء الحركة الوطنية المصرية في أحضان الحكم العثماني إلى هذه الدرجة التي تجعل كثيرًا من عناصرها يتخذون موقفًا عدائيًّا من حركات الإصلاح الحقيقية في أنحاء الإمبراطورية العثمانية؟

هل السبب فقط هو أن مصر هي إحدى الولايات العثمانية، وأن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة التي تحظى بالقَبول والاحترام داخل الشارع المصري؟ أم هو اعتمادُ حركة تركيا الفتاة وكثيرٍ مما يشابهها على أفكارٍ غربيةٍ ليس لها أرضِيّة ثابتة في الشارع المصري؟ أم أن الحركة

الوطنية المصرية وقتَها رغم اعتمادها على بعض القوى الأوروبية في تحقيق مصالحها مثل فرنسا لم تكن على ثقةٍ كاملةٍ بمصداقية هذا الدور واعتمادِهِ أساسًا للتحرك الجماهيري؟ أم أن هذا الموقف كان بمثابة ردّ فعلٍ لما حدث في الثورة العُرابية الكبرى التي انطلقت ضمن ما انطلقت منه في نهايتها على رفض الحكم العثماني والخديوي توفيق مما جعلها لُقمةً سائغةً في أيدي القوى الأوروبيّة التي عصفت بها وأعادت الخديوي توفيقَ إلى القصر على ظهر دبابة إنجليزية.

يمكن أن تكون هذه الأسبابُ مجتمعةً وراء الموقف الذي اتخذه مصطفى بن محمد نجيب وباقي عناصر الحركة الوطنية في مصر وقتَها، إلا أن المُمْعِنَ في قراءة المخطوط الذي بين أيدينا سوف يتملّكه إحساسٌ بحالةِ التّخبّط التي عانتها الحركة الوطنية عامةً بعد هزيمة عرابي واحتلال إنجلترا لمصر فعليًّا في ١٨٨٢م.

إن المؤلف وهو يَعيب على مصر والمصريين إثارتَهم للفتن بشكلٍ يمكننا معه أن نقول: إنه أحد أعداء هذا الوطن، هو نفسُه الذي يعود - وفي نفس المخطوط وبعد جملٍ معدودةٍ - إلى النَّيْل من المصريين بسبب حالة الاستكانة والضعف اللتين تتحكمان في المصريين:

"سألتني - أطال الله بقاءك - عن مصر وعن الأسباب التي صيرتها دارَ فتنةٍ وبلاءٍ في هذه الأيام، مَهبِطًا لكل خارج على الإمام، مأوًى للحاكين لنقمه، والصامتين عن نعمه، وملجأً لجماعة الزعانف، المدفوعين بيد الأجانب، والناطقين بتلقينهم.. حتى صار حضرةُ سلطان المسلمين.. يُشتَمُ فيها جهرًا"..

ولكني وجدت هذه البلدةَ في كل طبقاتها.. مَواطِنَ مصائِبَ وأكدار، وقد أَوْجَدَ اللهُ فيها طائفةً جعلها عِلّةً لحلّ اجتماع الكلمة، ومصدرًا لمنع الاتحاد والأُلْفَة.. " (ص٢، ٣ من المخطوط).

- إلّا أنه يعود في مكانٍ آخرَ، ويقول:

"فهي مسكينةٌ في شقاءٍ دائمٍ وتعاسةٍ مُستَمِرّةٍ، والزمنُ الذي رماها بالمصائب تمكنت براثنُه من قبضتها، وقد بقيت الآن في خَلَفٍ كجلد الأجرب تَئِنُّ تحتَ يدِ الأجنبي، ولها العُذْرُ في كل ما تفعله؛ لأنها مقهورة على أمرها ولو أرادت الخيرَ ما قدرت عليه".

(ص ٢٢ من المخطوط).

والأمثلة على ذلك في هذا المخطوط كثيرة، وليس من سَبَبٍ لهذا التّخَبُّط الواضح في الرؤية إلا الحالة الضبابية العامة التي خلَّفَتْها ثورةُ

عرابي المُجْهَضَة. والتي تركت المصريين ـ النخبةَ منهم و العامة ـ في حالةٍ من انعدام الرؤية السياسية والعجز عن تحديد العدو والصديق بشكلٍ واضحٍ، وبالتالي العجز عن تحديد خطٍّ واضحٍ أو رؤيةٍ واضحةٍ تُمَكّن المصريين من تحديد هدفٍ واحدٍ مُكتمِلٍ كلَّ الاكتمال.

لقد ظننت – وأنا أقرأ المخطوط للمرَّةِ الأولى – أن هذه الجرْأةَ على المصريين سَبَبُها وظيفة المؤلف في الديوان الخديوي، فالنقد لاذعٌ جدًّا، ولُغَـةُ الخِطابِ تَتَحدّثُ عن المصريين بوصْفِهِم (آخَرَ) بالنسبة للمؤلف، وأنه ليس منهم بحالٍ من الأحوال، ثم توصّلتُ في قراءةٍ ثانيةٍ إلى أنّ هذا النقد الشديد والصريح هو حالةٌ من حالاتِ جَلْدِ الذّاتِ التي تَعَوَّدْنا عليها في تاريخنا الطويل، ومما دعّم هذه النظرة عندي هو ارتباط المؤلف بالحركة الوطنيّة ومصطفى كامل.. إلا أنني الآن أكاد أوقِن أن حالة التخبُّط التي أَشَرتُ إليها هي السبب الرئيسي وراء هذا النقد الجارح أحيانًا للمصريين، مع عدم إغفال الأسباب الأخرى.

تهمني الإشارة أيضا إلى أن مثل هذه النظرة السطحية لطبيعة المصريين، بل والمضطربة، هي التي دفعتني دفعا لتأمل ظاهرة الثورة عند المصريين وأسبابها.. فهل يمكن أن يثور المصريون؟ وإذا كانت الإجابة بنعم فمتى يمكن أن يحدث ذلك؟ وما هي الأسباب التي يمكن أن تدفعهم إلى ذلك؟ هل السبب الاقتصادي يمكن أن يقف وراء مثل هذه الثورة، أم الاجتماعي أم السياسي أم الديني.. وهو ما حاولت أن أتأمله بين يدي تحقيق هذا المخطوط؛ فجاءت الدراسة التمهيدية للتحقيق تحت عنوان «متى يثور المصريون».

متى يثور المصريون؟

مهـــــاد

لم يستخدم العربُ كلمةَ ثورة في مدلولاتٍ سياسية إلا بشكلٍ نادر، وإنما كانت الكلمة المتواترة لما نطلق عليه ثورة الآن، هي كلمة خروج وربما فتنة، أو عصيان وربما تمـرُّد. على أن أكثر هذه الكلمات شيوعًا في الأدبيات السياسية التراثية كلمة (خروج) التي لو تأملناها لاكتشفنا أن إزالة أو حتى حلحلة السلطة السياسية القائمة من مكانها أمرٌ ليس واردًا في العقل العربي ولا في معجمه، بل جُلّ ما يمكن أن يُحدثه أيُّ ثائر هو أن يخرج على هذا الحاكم، أو يخرج عن مملكته. وهو ما يشير إلى عقاب المعارض والثائر - أقصد بالنفي خارجًا - أكثر مما يشير إلى تغيير الأمر الراهن. وهو ما تعضده المعاني المعجمية للثورة، التي تشير إلى التفرّق والانتشار في غير نظام.

أما كلمة ثورة فتدور إجمالًا في المعجم العربي حول معاني الهياج، والغضب، وحِدَّته، والظهور والسطوع، والانتشار في غير نظام، قال الأصمعي: رأيت فلانًا ثائر الرأس، إذا رأيته قد اشْعانَّ شعرُه أي: انتشر وتفرّق، وفي الحديث النبوي: «جاءه رجلٌ من أهل نَجْدٍ ثائرَ

الرأْس يسأَله عن الإِيمان»؛ أَي: منتشرَ شَعر الرأْس قائمَهُ. وفي معنًى موازٍ يُعبر المعجم العربي عن شدة الغضب بتعبير ثائر الفريصة، وهي اللحمة التي بين الجنب والكتف من الدابة، لا تزال ترعد، وأراد بها هنا: عصب الرقبة وعروقها؛ لأنها هي التي تثور عند الغضب.

على أن الدلالات الدائرة حول كلمة ثورة ليست كلُّها سلبيةً، تتصل بالغضب والهياج فحسب. فمن التعبيرات التي تداولها المعجم العربي أيضًا ما ورد مثلًا في الحديث النبوي: «فرأَيت الماء يَثُور من بين أَصابعه»، أَي: يَنْبُعُ بقوّة وشدّة. نستطيع طبعًا أن نبحث عن علاقة تستنطق المعنى المعجمي للكلمة (ثورة) لربطه بالمعنى الاصطلاحي، فالثورة التي تحدث نتيجةَ غضبٍ شديد، هي نفسها التي تشير إلى الماء والحياة. أو البحث مثلًا عن علاقة بين الثورة بمعنى حمرة الشَّفَق؛ أي: نهاية النهار وابتداء الليل، والثورة التي تنتهي فترةً وتبدأ أخرى.

أقول: نستطيع فعل ذلك، على الرغم من التكلّف الزائد عن الحد في مثل هذه التخريجات اللغوية، فأهم ما يَعنينا في هذه العُجالة اللغوية أن الثورة في معناها المعجمي تعني - تقريبًا على الإجمال -

معنى الثورة بالمعنى الاصطلاحي، ولكن من حيث التداولُ الـصحفي أو التداول العام.

الثورة، والتّقدّم

وبعيدًا عن هذا المعنى العام لكلمة الثورة، فقد تناولها عـددٌ غـير قليلٍ من الباحثين، محاولين تحديدها بالشكل الذي ترسخ في الأدبيـات السياسية منذ فترة بما يسمى «علم الثورة». " Revolutionology" ، وبطبيعة الحال تعرّض الباحثون في هذا العلم لتعريفـاتٍ كثـيرةٍ جـدًّا لمفهوم الثورة، كُلٌّ حسب توجّهه الـسياسي أو خلفيتـه الآيديولوجيـة، غير أن هذه التعريفات المختلفة دارت جميعًـا حـول معنـى: التغيـيرات الفجائيـة والجذريـة، وأحيانًـا العنيفـة لحكـم قـائم، وكـذلك النظـام الاجتماعي والقانوني المصاحب له، وهناك من يـرى في الثـورة ضرورة أن تحدث تغييرًا أساسيًّا كاسحًا في التنظيم السياسي والبنية الاجتماعية، حتى تكون ثورة، مثـل سيجموند نيومـان، حتـى إنـه يـرى ضرورة أن تُحْدِث الثـورةُ انكسارًا في اسـتمرار التطـوّر بالـشكل القـائم. أمّـا (أ/ ماتييز) فيُشِيرُ إلى أنه «تكون ثمةَ ثورةٌ إذا صحب تغييرَ الأنظمةِ تَعديلٌ

عميقٌ في نظام المِلْكِيَّة»[1]. على أن البعض يرى أننا نستطيع أن نسمي التغييرات الراديكالية غير السياسية ثورةً، حتى وإن تمت ببطءٍ ودون عنف، كما هو الحال عندما نقول ثورة علمية، ثورة فنية، ثورة ثقافية[2]... إلخ. وقد ميّز البعض مثل (بيتير سوروكين) بين ثورةٍ سياسيةٍ تهدف إلى إجراء تغييرٍ عنيفٍ في النظام الاقتصادي، وأخرى دينية أو عِرْقية، ثم يتحدث عمّا سمّاه «الثورة الشاملة»، ويعني بها: ثورات عظيمة الأثر في بلدانها وخارجها، وعلى المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي مثل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، والثورة الروسية عام ١٩١٧م[3]. وقد تقترن ثورةٌ سياسيةٌ بثورةٍ اجتماعيةٍ ثقافيةٍ، وقد تحاول الأُولى بعد نجاحها تَهْيِيءَ المناخ للثانية، وقد تنجح وقد تفشل، كما حدث مثلًا مع ثورة أكتوبر في الاتحاد السوفياتي فيما يَتَّصِلُ بحقوقِ المرأةِ ومُساواتها بالرجل.. حيث منحتْ الثورةُ - كما يقول

---

[1] جان بول سارتر: المادية والثورة، ترجمة: عبد الفتاح الديدي، منشورات دار الآداب بيروت، مارس ١٩٦٦، ص ٣٤.

[2] د. عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الهدى، الجزء الأول، بيروت، بدون تاريخ ص ٨٧٠.

[3] المرجع السابق: ص ٨٧٢.

(تروتسكي) - المرأةَ كلَّ الحقوق القانونية والسياسية التي يحصل عليها الرجل.. «ولكن أقوى الثورات عاجزة تمامًا عن جعل المرأة كائنًا مشابهًا للرجل، أو بمعنًى آخر: عاجزة عن أن توزّع بينها وبين رفيقها متاعب الحَمْل والولادةِ والرَّضاعةِ وتربيةِ الأطفال. لقد حاولت الثورة بكل شجاعة تدمير (البيت العائلي) الآمن، تلك المؤسسة القديمة الرتيبة الخانقة، التي حُكِم على نساءِ الطبقاتِ الكادِحةِ فيها بالأشغال الشَّاقّة منذ الطفولة حتى الموت. وكان الثوريون يؤمِنون بضرورة استبدال الأسرة من حيث هي مؤسسة صغيرة مُغلقة، بنظام مكتمل للخدمات الاجتماعية: مراكز أمومة، حضانات، حدائق للأطفال، مطاعم، أماكن لتنظيف الثياب، مُستوصَفَات، مُستشفيات، مراكز للنقاهة، مُنظمات رياضية، سينما، مَسارِح ... إلخ ... لم ينجح الهجوم على الأسرة القديمة ... إن تحريرَ المرأة الحقيقي مُستحيلٌ على أرض (البؤس الاشتراكي). لقد أكدت التجربة هذه الحقيقةَ التي تكلَّم (ماركس) عنها قبل ٨٠ عامًا»[1].

---

[1] ليون تروتسكي: الثورة المغدورة نقد التجربة الستالينية، ترجمة رفيق سامر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٥٢.

وقد رأى البعض من متخصصي هذا العلم من أهل القرن التاسع عشر وخاصة من اليساريين، رأوا في الثورات أدواتِ التقدم «الحتمي» نحو مُجتمع تسوده الحُرِّية والاستقلال الذاتي، والتناغم الاجتماعي والمساواة. ويرى كثيرٌ من اليساريين أن الانتفاضات الجماهيرية لا تكون أصيلةً إلا عندما تكون موجَّهة ضد الحُكَّام المُسْتَبِدِّين.

على الجانب الآخر يرى بعض المفكرين، من أمثال (نيتشَّه) و(جوستاف لوبون) أن الثوراتِ مُجَرَّدُ انفجارات شبه بربرية، وانفعالات جماهيرية مدمرة خارجة عن السيطرة، وهو ما يتفق معه بعضُ علماء النفس الذين يرون في الغضب والتعبير عنه في شكل ثورات عودةً إلى الإنسان البدائي المتوحش.

وثمَّة تفسيرٌ حديثٌ - حسب (عبد الوهاب الكيالي) - يُشيرُ إلى أنه نظرًا لحالة الفُجائية التي يتَّسِمُ بها الفعل الثوري فإن اللاشعور الجمعي للشعب الثائر ينفجر بكل ما يحمل هذا اللاشعورُ من عوامل تَقدُّمية ورجعية «ويرى هذا التفسير أن كل ما في الثورة فوضى».

وأيًا ما كان الأمر، فإنه ليس من المتصوَّرِ أن تحدث ثورة إلّا في حال وجود حاكمٍ ومحكومٍ وأوضاعٍ تستحق الثورةَ عليها، وشروطٍ متوفرةٍ لقيام هذه الثورة.

ولو أننا لاحظنا هذه التركيبة - أو قُل: المعادلة - نستطيع أن نستخلص منها أربعة عناصر.

أولاً: حاكم

في الأدبيات السياسية العربية تواترتْ هذه الكلمة، أو المصطلح السياسي بتَرادُفاتٍ كثيرةٍ، منها: الوالي والخليفة وأمير المؤمنين والملك والسلطان وراعٍ، وولي الأمر، وأخيرًا في بدايات القرن العشرين (الرئيس).

وفيما عدا هذا الاصطلاحَ الأخير فقد دارت كلُّ الألقاب السابقة عليه حول الحُكْمِ بالحقِّ الإلهي، ومِلْكيّة الأرض ومَن عليها. فالحاكم هو صاحب الولاية على الجميع، وهو خليفة الله في الأرض والناس، وهو صاحب السلطة. ولم تكتسِ هذه الألقابُ بإمكانية المحاسبة إلا في فتراتٍ محدودة. وما الصخَب الذي حدث حول (علي عبد الرازق)

في عشرينيات القرن العشرين إلّا لأنه حاول أن يَسْلُبَ الحاكم سواءً كان الخليفةَ العثماني أو الملكَ فؤاد هذا الحقَّ الإلهي الذي يريد أن يُلبسه حكمَه، وكما هو معلومٌ، فقد كان (الملك فؤاد) يستعد لإعلان نفسه خليفةً للمؤمنين، فجاء (علي عبد الرازق) ليقول: إن الخلافة ليست أصلًا من أصول الحكم في الإسلام.

لقد قطعت الأمة العربية أشواطًا طويلةً حتى تُنهي تمامًا على هذه الصلة بين الأرض والسماء فيما يتَّصل بشئون الحكم والدولة، وما زالت بعضُ أذناب هذه العلاقة قائمةً حتى كتابة هذه السطور.

ثانيا: محكوم

يُسَمّى في الأدبيات السياسية العربية بأسماء كثيرة تدور كلُّها حول الطاعة العَمْياء لأُولِي الأمر الذين يحكمون بالحقّ الإلهي، ويسميهم المعجمُ السياسي العربي: رعيّةً وموالي وأمّة وعوامَّ وناسًا، وهم الشعب، وأحيانًا الجمهور، وكثيرًا الدَّهماء.

لكن الأهمّ وفق هذا السياق: مَنْ مِنْ هؤلاء يمكن أن يوصف بأنه شخصٌ ثَوري؛ بمعنى: هل يمكن أن يكون أحدُ الدُّهماء ثَوريًا

لمجرد انتمائه الطبقي؟ أم أنّ الشخص الثوريّ له مواصفاتٌ محددةٌ في انتمائه الطبقي؟ يرد (سارتر) واثِقًا من أنه ليس من حظّ أي أحدٍ أن يكون ثوريًّا، ولكن (سارتر) يُشيرُ إلى أن الأحزاب لا الأفراد هي الأقرب لأن تكون ثوريّة، وهي أوّلًا القادرة على جذب الأفراد الذين يتمتّعون بإمكانية الانخراط في أعمال ثَوْريّة، ولكنه يستطرد: «ولكن لا يمكن أن يصدر تنظيمُ هذا الحزب إلا عن أشخاص من ذوي حالة اجتماعية معينة»[5].. ثم يضيف بأن «الرجل الثوري رجلٌ متموضع، ومن الواضح أننا لا نعثر عليه إلا بين المُضطهَدين»[6]. ولكن هل يكفي أن يكون المرء مُضطهَدًا كي يكون ثوريًّا؟ يشير (سارتر) إلى أن ذلك مرشِحٌ قويٌّ إلا إذا كان هذا المنتمي للطبقة المُضطهَدَة يتقاسمُ بعضَ الامتيازاتِ مع مُضْطَهِدِه، أو حتى يريد اقتسام هذه المميزات مع الطبقة التي تمارس الاضطهادَ، في هذه الحالة لا يمكن أن يكون حاملُ

(5) جان بول سارتر: مرجع سابق، ص ٣٤.

(6) المرجع السابق: ص ٣٤.

طلبات المساواة - حسب سارتر - ثوريًّا؛ حيث لا يُعتبر المرء ثوريًّا إلا إذا حصل على مَطالِبه عن طريق «تحطيم الطبقة التي تضطهده»[٧].

ثالثًا: أوضاعٌ سيِّئة:

وهي الأوضاع التي يجعلها الجميع سببًا في قيام الثورات من الثاني (الرعية) على الأول (الراعي). قد تكون هذه الأوضاعُ: تفشي الرشوة والفساد، وقد تكون: تردي الأوضاع السياسية، هذا في العالم كلِّه تقريبًا، أمّا في منطقتنا، فإن السببَ الرئيسَ لقيام ثوراتٍ على حاكم قائمٍ وجودُ آخرَ مُفترضٍ يرى في نفسه الكفاءة السياسية المطلوبة للجلوس على كُرْسِي الحكم، أو يرى أن هذا الملك ملكُه هو اغْتُصِبَ منه، وهو يريد أن يَهُبَّ لاسترداد مُلْكِه المُغْتَصَب.

ولم يأت سوءُ التدبيرِ كسببٍ واضحٍ للقيام بثورة، رغم إدراك المُفكّرين العرب لسوءِ التدبيرِ في الحكم في المِنْطَقَةِ العربية كسببٍ رئيس لسوء الحالة الاقتصادية، فقد كانت النُّخَبُ العربية دائمًا تُرجِعُ سوءَ الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لأسبابٍ طبيعية، مثل حدوث

---

[٧] المرجع السابق: ص ٣٥.

فيضانات أو جفاف أو ندرة موارد إلخ. لكن ذلك ليس على إطلاقه، فقد تنبَّه بعض المفكرين العرب في العصور الوسطى إلى الفساد السياسي كسببٍ رئيسٍ من أسباب سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، من أمثال (المَقْريزي) في كشف الغُمّة، حيث صرح بكثير من الجرأة أن «ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد»[8].

على أن كثيرًا من الأدبيات السياسية ـ إن لم تكن كلُّها ـ تربط بين الفعل الثوري والعامل الاقتصادي، كالماركسيين مثلًا الذين يجعلون السببَ المباشر للثورة أن تصبح علاقات الملكية مُعوِّقةً للإنتاج، عندها تحدث أزمةٌ وتبدأُ حِقْبَةٌ من الثورات الاجتماعية، "ولا تستطيع الطبقات الحاكمة ولا تريد الطبقات المقهورة المُسْتَغَلَّة أن تعيشا معًا في ظل الشروط القائمة، وهذا التناقض بين الطبقات الاقتصادية هو الذي يُفضي إلى ثورة عنيفة"[9].

---

[8] المَقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، قام على نشره: محمد مصطفى زيادة، جمال الدين محمد الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، ط ٣، ٢٠٠٢، ص ٤.

[9] د. عبد الوهاب الكيالي: مرجع سابق ص ٨٧٢.

رابعاً: الخاصَة/ آباء العريف

بين الحاكم والمحكوم يوجد دائمًا حاجبٌ، والحجابة ليست مجردَ وظيفة بل هي طبقةٌ كاملةٌ في الأدبيات السياسية العربية، تطورت أحيانًا لتكون حاشيةً، وأحيانًا صفوة ودائمًا خاصة، أو نخبة، إنها دائرةٌ النار التي تحوط بالحاكم لا يُستطاع اختراقُها إلا لمن تأذَن له بذلك، والحقيقة أن جزءًا كبيرًا من الكوارث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي لحقت - وما زالت - بالأمة العربية سببها هذه النخبة، التي لا تجيد سوى خداع الحاكم والمُتَاجَرَةِ في المحكوم، إنهم طبقة الوسطاء، الوسطاء بالمعنى التِّجاري الرخيص للكلمة.

لعلك قرأت ذات مرة إعلانًا في الصحف عن سيارة أو شقة للبيع، وقد ذُيِّل الإعلان بجملة واضحة لا تقبل اللبسَ تقول: الوسطاء يمتنعون. تعني هذه الجملة - ببساطة - أن صاحب السيارة أو الشقة المُعْلَن عنها، يريد الاتصال المباشر مع راغب الشراء، وذلك لأنه لا يريد أن يدفع نسبةً لذلك الوسيط الذي يرى أنه لا لزومَ لوجوده أصلًا.

تعني الجملة أيضًا أن فئةً محددة تَحْشُر أنْفَها فيما ليس لها فيه، وبِغَرَضِ الاستفادة المجّانية من طرفي البيع. تعني الجملة أيضًا أن كلَّ شروط البيع متوفرةٌ، ومواصفات البضاعة معروفةٌ، كما أن سعرها لا جدالَ فيه. وأن الأمر بِرُمَّته لا يحتاج لشرحٍ أو توضيحٍ من أي طرفٍ ثالث خاصةً إذا كان هذا الطرف لا هدفَ له سوى المكسب المادي دون مُراعاةٍ لمصلحة أي من الطرفين، حتى وإن كان الثمن هو الكذب المجاني والنفاق الواضح.

ثم – وهو الأهم – الثرثرة الدائمة بأنه لولاه ما كان يمكن للطرفين أن يصلا إلى تراضٍ كامل بينهما.

- تسأل الآن: وما عَلاقة ذلك كله بكلمة «الخاصة» التي وضعتَها في العنوان الفرعي؟

ورأيي – ببساطة –: أن مثقفي الوطن العربي أشبه بالوسطاء (السماسرة) في كثير من حالاتهم، يتحدثون باسم المجتمع وهم لا يعرفون عن هذا المجتمع شيئًا؛ اللهم إلا حدود أسرهم ومحيط المؤسسة التي يعملون فيها. كما أنهم يوهمون المؤسسة السياسيةَ دائمًا

بأنهم الأكثر معرفةً بالناس، لا لشيء إلا لجَني المكاسب، وتحصيلِ العمولات، ولا يتورَّعون كذلك عن الثرثرة ليلَ نهارَ عن تضحياتهم في سبيل كلمة الحق التي لم ينطق بها لسانُهم مرة واحدة توحِّد الدَّيَانَ، وما ذلك إلا ليجمعوا حولهم الناسَ، ويملأوا الفراغ بكلام ليس له معنى، وظني لو أنهم يفقهون ما يقولونه لتغير أمر هذا الوطن كثيرًا.

أعرَفُ الناس بهؤلاء المثقفين/ السماسرة هم الحكامُ، أولئك الذين يُشْبِهون صائدي الحيوانات الضالة التي فقدتْ شراستها جرّاءَ معيشتها فوق أرصفة شوارعَ تتقاذفها ليلَ نهارَ، حتى صارتْ تحت السيطرة وهو ما لا يكلف أكثرَ من بقايا طعام فاسدٍ، أو فُتاتِ مائدة.

لقد باع هؤلاء المثقفون هذه الأمةَ واشتَرَوها مِئات المرات، وفي كل مرّة يُقْسِمون بأغلظِ الأيمانِ أنهم لم يستفيدوا كبيرًا أو صغيرًا، وأنهم ما جنَوا غير الخسارة؛ خسارةِ المال والصحة والعمر، وأن هدفهم الأوَّل والأخير ليس إلا مصلحةَ هذا الوطن ومستقبل مواطنيه، يقولون هذا بصوتٍ عالٍ، ثم يخفضون أصواتهم ناظرين إلى أسيادهم نظرةً لها مغزًى وهم يواصلون: ومن أجل استقرار الحكم.

الغريب في الأمر أن الحاكم والمحكوم يعرف كلاهما أنه نصاب، ولكنه فقط "يُحلِّي بضاعَتَه" التي ليست إلا كلامًا لا يستقر على حقيقة، يعرف كلاهما - الحاكمُ والمحكوم - أنه - المثقف! - مُدَّعٍ أفَاق، ولكن اللعبة يجب أن تستمر حتى النهاية دون أن يكشفها أحدٌ علنًا، وكأن الجميع يجلسون أمام خشبة مسرح يقوم فيها هؤلاء المثقفون بالتأليف والتمثيل والإخراج.

ليس أمام هذه الأمة بُدٌّ من رَفْع لافتةٍ كبيرةٍ في كل الشوارع ووسط كل الميادين، وفوق أسْطُحِ البيوت، لافتةٍ لا تخطئها أي عين تقول: المثقفون يمتنعون.

نعم يمتنعون.. يمتنعون عن بيع الوطن الذي لا يعرفون عنه شيئًا.. يمتنعون عن مداهنة الحكام ثم بيعهم في أقرب فرصة وأول مُنعَطَفٍ ليجلسوا على موائد غيرهم.. يمتنعون عن الكذب على الناس وتضليلهم.. يمتنعون عن صنع تاريخٍ مُزَيَّفٍ لأنفسهم في النضال الوطني بهدف غسل تاريخهم سَيِّئِ السمعة، يمتنعون لأنهم - ببساطة - ليسوا مثقفين. لا يحملون قضية إلا أحلامًا شخصية تهون في سبيلها

الأوطانُ والأديان. وليس لهم من وسيلةٍ لأهدافهم غير النفاق الرخيص لتهافتهم وضعفهم وهشاشة رُؤاهم. مصر تنشر كلَّ عام ما يقترب من عشرة آلاف كتاب لا يقرؤها أحدٌ؛ والسبب - ببساطة - أنها لا تحمل شيئًا ذا بال في الغالب، مجرد كلام ممجوج لمصلحة فلان أو فلان، أو للحصول على درجة علمية لم يصبح لها معنًى جرَّاءَ التردي الواضح في حال التعليم، الأمر كله لا يعدو استرزاقًا و"سَبُّوبة". والناس - الهدفُ الأساسي من كل هذا الضجيج - يعيشون في واديهم الضيق لا يَعرف عنهم حكامهم ولا مثقفوهم شيئًا، ولا يعرفون هم أيضًا عن حكامهم ولا مثقفيهم شيئًا. والمصيبة الحقيقية لو انتدب الناسُ واحدًا من هؤلاء المثقفين لمناقشة قضيةٍ أو فهم أمرٍ ما، سيتقمَّص على الفور شخصية (أبو العُرّيف) المصري، هل تعرفه؟ سأحكي لك حكايته:

يحكي الناسُ عن رجلٍ اشترى بقرةً صغيرةً من السوق، دخل الرجل ببقرته الصغيرة إلى بيته المتواضع، رباها، حتى كبرت البقرة وحان وقتُ بيعها، حين أراد الرجل الخروجَ ببقرته من باب بيته لم

يستطع لأن باب البيت أصغر من أن يُخرج البقرةَ، اقترح بعض الجيران ذبح البقرة، واقترح البعضُ الآخر هدمَ باب البيت، وبينما هم يناقشون الأمرَ إذا بصوت خرج بين الجموع يقول – وبنبرة الواثق العليم –: مش هيحل المشكلة دي غير (أبو العريف). صمت الجميع وكأنهم وجدوها، وقالوا: أين (أبو العريف)؟ أين (أبو العريف)؟

بعد ساعات حضر (أبو العريف) على بغلته الشهيرة، ووقف أمام بيت الرجل وسمع المشكلة، ثم قال:

- اذبحوا العجل.. ذبحوه.
- اهدموا الباب.. هدموه

ثم قال: أخرجوا العجل الآن. ثم نظر إلى كل الملتفين حوله وقال: يا ويلكم من بَعد (أبو العريف)! يا ويلكم!!.

لقد خَرَبَها (أبو العريف) ثم وقف يُعيّر الناسَ بحسن تصرفه وذكاء حيلته، وقوة معرفته، وما مثقفو أمتنا ونخَبها إلا مجموعة من آباء العريف..

(أبو العريف) العربي هو الذي سمى الثورةَ تمردًا، واحتجاجًا وفتنة وهوجة، وفي أحسن الأحوال خروجا، ليعطي للحاكم جانب الصواب، فيما يضع المحكومَ في خانة الخطأ. إن (أبو العريف) الذي كتب تاريخ الحاكم وليس تاريخَ المحكوم، هو نفسه الذي اهتم بكتابة تاريخ الانقلابات العسكرية والثورات التي ترجع لحاكم على حاكم، أما ثورات الشعوب فليست ذات أهمية لا بالنسبة للحكام ولا بالنسبة لآباء العريف الذين يحيطون به.

على الأوضاع المتردية وعلى الخاصة وعلى الحاكم يثور المحكومون، أو يخرجون عليهم بتعبير الأدبيات السياسية العربية، وبين الثورة والاستكانة مجموعة غير قليلة من الأفعال السياسية التي يمكن أن نعتبرها تمهيدًا للثورة، لكن وجودها لا يَعني حتميةَ حدوثِ ثورةٍ في أعقابها.

من التظاهر للتمرد

من هذه الأفعال السياسية التظاهر والإضراب والاحتجاج والعصيان والتّمرّد. ولكل من هذه الأفعال السياسية شكلٌ محدودٌ، قد يكون الثُّوَّار على وعْي بكل منها ويقومون بكل فعل عن وعي كامل بالتوقيت والتأثير، وقد يحدث كل فعل من هذه الأفعال دون ترتيب أو وعْي كافِيَيْن، وهو ما يحدث في المجتمعات العربية على الإجمال.

يدفعنا هذا التفريق بين أشكال الفعل السياسي إلى الإشارة إلى مراحل العمل الثوري في المجتمعات الإنسانية عمومًا، وهو ما اهتم بدرسه علماءُ السياسية والاجتماع على نحوٍ مخصوص. غيرَ أنني أوَدّ أن أشير إلى أن نقطة انطلاق العمل الثوري في المجتمعات ـ الناضج منها على وجه الخصوص ـ لا تكون واضحة المعالم، وعادة ما تكون غيرَ ملحوظة، وهو ما يشير إليه المؤرخ الأميركي (كرين برينتون) من أن العلامات الدالة على اقتراب الثورة في مجتمعٍ ما لا تكون عادةً واضحةً للغاية، وليست ممكنةَ التمييز بسهولة، حيث توجد - عادة - ضغوط متزايدة بشكل مضطرد تؤدي في النهاية إلى انهيار النظام السياسي

---

(11) انظر: د. عبد الوهاب الكيالي: مرجع سابق، ص ٨٧٥.

لكن (برينتون) يعتبر هذه الضغوطَ المتزايدة سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي وغالبًا الاقتصادي، هي الدافعَ الأساسي لتحوّل المجتمعات إلى اتخاذ قرار العمل الثوري، وهو ما لا أجد صدًى له في دراستي للحالات الثورية في المجتمع المصري، الذي لا يثور تحت ضغط سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي، كما سنرى لاحقًا.

على أي حال يرى كثير من الباحثين أن المرحلة الأُولَى للعمل الثوري دائمًا ما تتسم بآمال طوباوية وأحلام مثالية، تدفعهم لأن يكون حسُّهم الثوري خَطابيًّا أكثرَ بشكلٍ زائدٍ عن الحدّ. هذه النزعة المثالية، والأداء الخَطابي هو ما يؤدي إلى انقسامٍ يراه كثيرون حتميًّا بين جناحين تتفتق عنهما المجموعة الثورية؛ وهما: جناح معتدل.. وآخر: متطرف، تنتهي دائمًا بانتصار الجناح المتطرف؛ حيث يُعبِّر هذا الجناح - عادةً - عن الأحلام المثالية التي تدغدغ مشاعر الجماهير نحو تحقيق المساواة والعدل، وكافة القيم التي يبحث عنها الثُّوّار لتحقيق الكمال الذي ينشدونه. ثم تأتي المرحلة الثالثة، التي يبذل فيها الثوار أقصى جهدٍ ممكن لتحقيق أهدافهم الثورية، ثم يبدأ الثوارُ في الهدوء في

المرحلة الرابعة التي تنتهي بتنصيب رجلٍ قويٍّ يستطيع التعبيرَ الهادئ والقوي عن الأحلام الثورية وتحقيقَها عمليًّا، فتكون مرحلة حكم هذا القوي هي المرحلةَ الخامسة التي تعقبها ممارسةُ الحكم والتصدي لمشكلاته العملية، وأثناء هذه المرحلة يبدأ المجتمع كله في استعادة بعض الممارسات السابقة على الثورة، سواء منها السياسي أو الاجتماعي أو غيرهما، وهو ما يدفع البعضَ إلى التفكير في إعادة النظام القديم مرة أخرى وهو حسب علماء الثورة ما لا يجد له معينًا على التحقق[1].

يرى (برنتون) وَفْقَ هذا التحليل أن مُحَصِّلة هذه المراحل التقدم في سبيل تحقيق الكفاية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية بشكلٍ أكثر مما كان سابقًا على هذا الفعل الثوري.

ومع تقديري الكامل لهذا التقسيم العام للعمل الثوري، فإن النظر إلى طبيعة الحكم في المجتمعات العربية عامة وفي مصر خاصة، يقترح تصوُّرًا مُغايرًا بعضَ الشيء عن هذا التقسيم السابق.

---

[1] انظر: المرجع السابق نفسه.

لا شك أن تردي الأوضاع يُعْتَبَرُ مَرْحَلَةً مشتركة في كل الثورات الإنسانية، لا نستطيع أن نستثني مُجْتَمَعاتِنَا منها، لكن هل وجودها يعني وجودَ فعلٍ ثوريّ كنتيجة لهذا الترَدِّي، في مصر؟ لا، لكن الفعل الثوري إذا ما حدث فإن التردي العام في أوضاع المجتمع موجودٌ بالضرورةِ. هذا التردي يَخْلُقُ حَنَقًا عامًّا، فالمصريون لا يثورون لأنهم يتطلعون للأفضل بل ربما غضبًا من أسوأ.

تبحث الجماعة ـ أستطيع أن أقول: الجماعة الشعبية ـ عن شخص يمكنها أن تحمِّلَه همومها، لاحظ أن الجماعة تبحث عمن تُحَمِّلُه هُمُومَها لا من تُحَمِّلُه أَحْلامَها، فهي تريد التغيير ليس أملًا في مستقبلٍ أفضلَ بل هربًا من واقع أسوأ. قد تجد الجماعة هذا الرجل الذي ترى فيه – مع بعض التجوّز – ذاك الذي يستطيع التعبير عن همومها ومخاطبة المسؤول عن هذه الهموم، فيصبح هذا الرجل زعيمًا في يومٍ وليلة. قد لا تجد الجماعة هذا الرجل/ الزعيم فيخرج الوَعْيُ الثوري على شكلِ إضراباتٍ أو احتجاجاتٍ أو عصيانٍ محدود.

إذا ما وجد المصريون ذلك النوعَ من الرجال يمكن أن تنقلب الحياةُ بشكلٍ دائمٍ في شكلِ ثورةٍ دائمةٍ "Permanent Revolution" بالتعبير الماركسي، ولا يمنع من مثل هذا الفعل الثوري الدائم سوى تحوّل هذا الرجل من ثائرٍ إلى إله، وكذلك تحوُّل المصريين من ثوّار إلى عبيد إحسانه.

الأجدر بالاهتمام الآنَ من وجهة نظري هو طرح مجموعة من الملاحظات، التي تتصل بطبيعة الفكر الثوري في مصر، والوطن العربي.

وتتصل أُولَى هذه الملاحظات بطبيعةِ الحاكم وما يُتداوَل عنه في المجتمع، حيث تؤثر مكانته الدينيةُ وسماته الأخلاقية، ليس في إمكانية الثورة عليه من عدمها، بل في قبول الثورة عليه أو قُلْ الانقلاب. وليس ببعيدٍ عن الذاكرة السياسية في مصر موقفُ المصريين من عرابي قبل إعلان (السلطان العثماني/ خليفة المسلمين/ أمير المؤمنين) عصيانه وخروجه عن صحيح الدين، وبعد هذا الإعلان .. وها هو الخبر تنشره جريدة الأهرام في عدد ٩ أغسطس ١٨٨٢م، وراء عنوان فرعي يقول: البشرى، يقول الخبر:

"أفادت أخبار دار الخلافة الخصوصية أن الحضرة السلطانية قبلت شروط إنكلترة كلها، وتوقِّع اليوم عليها مع إعلانها أن عرابي عاصٍ. وعليه، فغدًا تقوم العساكر المظفرة العثمانية من سودا، وتأتي قُطْرَنا فيقتبلها (كذا) بالترحاب".

الغريب في هذا الخبر أن الصحيفة التي تنشره - (الأهرام) - فرنسية الهوى والتأييد، وتذكر خضوع "أمير المؤمنين" تمامًا لكل أوامر بريطانيا، دون أن تشير - حتى إشارة - إلى هذا الخضوع المُخزي، ثم ها هو المحرر يردف هذا الخبرَ بقوله:

"مهلًا يا عاصي، فها أمير المؤمنين نادى بعصاوتك فأنت إذا بقيت على غَيِّك تكون عدوَّ الدين والأمة والوطن".

هكذا تحدد معنى العصيان السياسي، أو قل: أوضحه لنا محرر الأهرام في نهاية القرن التاسع عشر، وهو الخروج على الحاكم أمير المؤمنين، بمعنى أن الحاكم كلما اقترب أكثرَ من عباءةِ الدين كان الخروج عليه أصعبَ. ولنا في الشدة المستنصرية دليلٌ على ما ذهبنا إليه، وهو ما سنَزيد فيه القول بعد قليل.

الملاحظة الثانية: لا يرى المحكوم حاكمَه في مصر وقد يرى الحاكمُ المحكوم، بمعنى أن الصلة تكاد تكون مقطوعةً بين طرفي المعادلة السياسية الكبيرين، والسبب في هذا الفصام يعود للواقف بينهما؛ الحاشية، التي إمّا ألّا تصل بين الحاكم والمحكوم أو تتولى هي بنفسها هذه المهمةَ بمعنى توصل صوت الحاكم للمحكوم وصوت المحكوم للحاكم، وفي الحالتين لا تقوم بهذا العمل بالنزاهة التي تتطلبها مثلُ هذه المهام. ولا ينبغي أن يفوتَنا أن هذه الفئة الاجتماعية - (الحاشية) - توسعت كثيرًا عما كانت عليه في العصور الوسطى، حيث دخل في هذه الدائرة الجهنمية المثقفون والصحفيون ورجال الإعلام وأصحاب الحظوة من أهل الفن والرياضة.. إلخ.

الملاحظة الثالثة: المصريون أقربُ لروح الإضراب والعصيان منهم لروح العمل الثوري، ويحتاج العصيان والتظاهر والإضراب إلى رجلٍ يستطيع المصريون أن يصدقوا دون جهدٍ كبيرٍ أنه يستطيع التعبير عن همومهم، وما لم يتوفر هذا الرجل فإن غضب المصريين مهما كانت أسبابه لن يتعدى إضرابًا هنا أو احتجاجًا أو مظاهرةً هناك.

الملاحظة الرابعة: لا يثور المصريون لأسباب اقتصادية أصلاً، ومن يتصور أن المصريين يمكن أن يثوروا بسبب تردي الحالة الاقتصادية واهمٌ، ولا يعرف عن المصريين أكثر مما يعرف عن جبال (الواق الواق).

وتحمِل كتبُ التاريخ المصري أمثلة تعزّ عن الحصْر لحالاتِ جوع وفقرٍ سببها سوءٌ تدبيرِ الحكّام بشكلٍ مباشر، ومع ذلك لم يثر المصريون على حاكمهم، وهل هناك أكثر من السنوات السّبع التي عاناها المصريون في الشدة المستنصرية، من الغلاء الذي فحُش أمره، وشنع ذكره، وسببه - كما يقول المقريزي -: "ضعف السلطنة، واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العُرْبان، وقصور النيل، وعدم من يزرع ما شمله الري.. فنزع السعر، وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تعطّلت الأراضي من الزراعة، وشمل الخوف، وخيفت السبل برًا وبحرًا، وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخِفارة الكثيرة وركوب الغَرَر، واستولى الجوعُ لعدم القوت....

وأُكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب فبيْع كلبٌ ليؤكل بخمسةِ دنانير، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا"[12].

لم يثر المصريون على الحاكم الذي ظلّ في قصره خليفةً وحاكمًا، حتى زالت الشدةُ التي لم تكن مجردَ حالةٍ اقتصادية متردّية، بل إنها بالإضافة إلى ذلك اشتملت على انعدام أمنٍ اجتماعي، وفسادٍ سياسي وأوبئةٍ، وجفافٍ، ومع ذلك لم يثر المصريون، لماذا؟ لأن المصريين لا يثورون لأسبابٍ اقتصاديةٍ أصلًا. ومن يراهن على ذلك مُخطئ.

قد يتبادر إلى ذهنك سؤال: لماذا إذن يثور المصريون إنْ لم يكن السببُ الاقتصادي في مقدمة الأسباب التي يمكن أن تدفعه للثورة؟

والإجابة ببساطة: أن الشعب الذي صبر على الجوع والفساد السياسي وانعدام الأمن كلَّ هذه السنوات في الشدة المستنصرية، وغيرها من الشدائد، وكل أيامه كذلك، هذا الشعب هو الذي ثار ثورةً عارمةً في كل ربوع مصر من أقصاها إلى أقصاها عام ١٩١٩م اعتراضًا على نفْي سعد زغلول، تصوَّرْ! كلُّ هذه الثورة على نفي رجل

---

[12] المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: مرجع سابق، ص ٢٤

هم الذين صنعوه وصنعوا زعامته بأيديهم بدايةً من التوقيعات الشعبية وانتهاءً بأغاني سيد درويش، ولا صوتَ لأحدٍ في شدةٍ كالشدة المستنصرية، والملاحظة هنا أنك حين تسأل عن الثورة في بلد مثل مصر لا يجب أن تسأل عن الأسباب التي يمكن أن تَدفع إليها، بل الأحرى السؤالُ عن مدى توفر شروط الفعل الثوري هل هي مُتحقِّقة أم لا، وقتَها لا تسأل لماذا يثورون؟ فقد يثورون لأسبابٍ يراها كثيرون لا تستحق الثورةَ.

هكذا يتضح أن كثيرًا من المقولات السياسية التي استقاها مثقفونا من الأدبيات السياسية الغربية لا تصح في التطبيق على المجتمع المصري مثل حتمية قيام الثورات التي أكدها ماركس، وكذلك مقولاته عن الضرورات الاقتصادية وراء الثورات، والصراع الذي يحدث بشكلٍ حتمي في مرحلةٍ من مراحل التطور في المجتمع بين قوى الإنتاج من جهةٍ وعلاقات الملكية والإطار الاجتماعي والسياسي القائم من جهةٍ أخرى.

الملاحظة الخامسة: لا يثور المصريون نتيجةَ فكرة جديدة أو مبدأ جديد يسود بين طبقات وفئات المجتمع، فمصر - كما يؤكد العقاد - لا يثور فيها مبدأٌ على مبدأ، ولا عقيدةٌ تتمرد على عقيدة، ولا مصلحة قوميّة تناقضها مصلحةٌ قومية[13]. لقد أشار العقاد إلى هذا المبدأ وهو يناقش شعار ثورة يوليو ١٩٥٢م (الاتحاد والنظام والعمل)، حيث يرى أن هذا الشعار بهذا الفهم السابق "هو النسخة المصرية التي لا تلتبس بنسخةٍ أخرى في وجهتها ولا في تعبيرها"[14].

إن هذه السِّمة التي تشير إلى صعوبة حدوث ثورةٍ في المجتمع المصري، هي نفسها التي تشير إلى سَعَة صدر المصريين، وتسامحِهم، واستحالة وجود تحركٍ ثوريٍّ من طبقةٍ على طبقة، ولا من فِئةٍ على فئة، رغم الاحتقانات الموجودة بين الطبقات والفئات بعضها وبعض، كما سنورد لاحقًا.

---

[13] انظر: عباس محمود العقاد: فلسفة الثورة في الميزان، دار المعارف، بدون تاريخ، ص ٨.

[14] المرجع السابق نفسه.

أَوَدّ الإشارة كذلك إلى أن ما أشار إليه العقاد وهو يحاول تحليل شعار الثورة المصرية في ١٩٥٢م، هو نفسه ما صرح به جمال عبد الناصر في "فلسفة الثورة" حينما أكد أن الثورة المصرية في ١٩٥٢م لا يمكن أن توصف بأنها تمرّدٌ عسكريٌّ؛ لأن التمرّد - كما يُردف العقاد - لا يكون بإجماع الآراء، كما أنها - (الثورة) - لا يمكن أن تكون ثورة شعبية؛ "لأن الثورة الشعبية لإسقاط ملك لا يحميه الجيش أمرٌ غير مطلوب وغير مفهوم"[١٤].

الملاحظة السادسة: المصريون لا ينزعون للحكم أصلا، ولا يَطمَعون فيه، وذلك أنهم نظروا للحاكم منذ زمنهم الأول باعتباره إمّا غريبًا عليهم أو إلهًا لهم؛ فهم إمّا أنهم يحبونه إلى درجة التقديس أو يكرهونه ولا يريدون التعاون معه، وليس أدلّ على هذه السمة من حركة النخبة السياسية في مطلع القرن التاسع عشر حينما قاموا بخلع الوالي التركي خورشيد، وفرض محمد علي رغمًا عن الخلافة العثمانية

---

[١٤] المرجع السابق: ص ١١.

الشرعية القوية، كان بإمكان عمر مَكرم أن يجلس على ولاية مصر بعد خلع خورشيد، لكنه خلع واحدًا ووضع آخر.

كنت أنظر إلى هذه الحادثة قبلْ كدليل على أن النخبة المصرية الدينية على وجه الخصوص كانت ترى نفسها أكبر بكثيرٍ من مجرد والٍ لا يملك من أمره شيئًا، بينما الحل والعقد في يد الحكم الديني في تركيا أو في صحن الجامع الأزهر، وبعيدًا عن صحة أو خطأ هذا التصور.. فإن ذلك يدل على عزوفٍ شعبيِّ عن الدخول في دهاليز الحكم وأمور الرياسة، بل إن مجالسةَ رجال الحكم في نظر المصري - مجرد مجالستهم - تَجلِبُ الأذى والضرر، وهو ما يتبدى في المثل الشعبي "مبروك الطهارة يا مجالِس الأمارة". والمقصود بالطهارة: الختان كما هو مشهور، ويحكي المثل عن أسد (ملك الغابة) أنه مرض فعادته كل حيوانات الغابة، عدا ثعلبٍ عجوز. وكان بين هذا الثعلب العجوز وذئبٍ عجوزٍ خصومةٌ، واتفق أن الذئب كان يجالس ملك الغابة المريض، ولما كان الذئب كارهًا للثعلب فأراد أن يشيَ به عند الأسد، فقال له:

- مولاي الأسد ملك الغابة، لقد زارك كل أهل الغابة للاطمئنان على صحتك إلا الثعلبَ العجوز، لماذا؟! أيتكبر عليك، أم لا يهتم بصحتك؟!

فتنبه الأسد الذي لم يكن يذكر الثعلب أصلًا، وصرخ في عساكره أن يأتوه بالثعلب العجوز، فلما حضر الثعلب الذي كان يكره الذئب أيضًا، كما يكره مجالسةَ الملوك، سأله الأسد:

- ألم تعلم بمرضي؟

- فقال الثعلب: نعم أعلم بمرضك يا مولاي.

فاستشاط الأسد غضبًا، وظن الذئبُ العجوز أن غريمَه هالكٌ لا محالةَ، فسأله الأسد عن سبب عدم زيارته له مع علمه بمرضه، فقال الثعلب العجوز:

- كنت أبحث لك عن دواء يا مولاي.

- سَعِدَ الأسدُ جدًّا، وقال في لهفة: وهل وجدته؟
- فقال الثعلب: نعم يا مولاي الملك، وجدته.
- فقال الأسد: وما هو؟

فردّ الثعلب الماكر: كل الأطباء أجمعوا على أن دواءك يا مولاي في أن تأكل خصيتي ذئب عجوز...

خرج الثعلب من خيمة ملك الغابة، وانتظر خارجَها حتى يخرج الذئب العجوز وقد التهم الأسدُ خصيتيه، فابتسم الثعلب في مكرٍ، وقال له: "مبروك الطهارة يا مجالِس الإمارة".

إذا كان المصريون لا يثورون لأسبابٍ اقتصادية ولا ينزعون للحكم ولا يثور فيهم مبدأٌ على مبدأ، ولا فكرةٌ على فكرة، فمتى يثور المصريون إذن؟

في ظني.. يمكن أن يثور المصريون في أي وقت إذا ما توافرت مجموعة من الشروط الموضوعية للثورة بعضها تشترك فيه كل الثورات على وجه الأرض على اختلاف ظروفها الموضوعية، وبعضها يميز الحالةَ المصرية على وجه الخصوص.

يتعلق أولُ شرطٍ من هذه الشروط بالعلاقة بين الطبقات والفئات في مصر، حيث إنه على الرغم من التسامح الواضح في المجتمع المصري والذي يحمي السلام الاجتماعي من تهديدٍ شديدٍ يؤثِّر

على حالة الأمن الاجتماعي أو يعرِّض المجتمع لحالةٍ من الفوضى. على الرغم من هذا التسامح فإن المتأمل لا يستطيع أن يُغفل بعضَ المشاعر التي تشير إلى عدم وجود الودّ الاجتماعي بين طبقات المجتمع وفئاته. ومن المهم في هذا السياق أن أؤكد أهميةَ التركيز على المعنى المحدد لـ "انعدام الودّ" فأنا لا أقصد مشاعر الكراهية، ولا أقصد العداء، لكنني أيضًا أقصد أنه لا يوجد رِضًا كاملٌ بين كلِّ طبقات وفئات المجتمع بعضها على بعض، وهو ما يجعل كلّ فئة تشعرُ بـ(عظمة) دورها وأهميته في مقابل تهافت أدوار الآخرين وعدم أهميتها، فترى المنتسبين إلى كلِّ فئةٍ في المجتمع المصري يرى كلٌّ منهم أنه ينتمي إلى الفئة الأَهَمّ، فيما لا أهميةَ ولا ضرورة ـ حسب نظره ـ لبقية الفئات. إن هذا الشعور العام بعدم الاحترام أو قل: بعدم التقدير بين فئات المجتمع هو انعكاس لعدم الاحترام بين طبقات المجتمع، فكل طبقة وكل فئة ترى أنها تحمل المجتمع وهمومَه فيما لا تعمل بقية الطبقات أو الفئات ما يساوي حتى مجردَ استنشاق الهواء، إن هذا الشعور هو ما يجعل كل شرائح المجتمع تعيش حالةً من عدم الانسجام الاجتماعي، وهو عدم

انسجامٍ لا يؤدي إلى اضطرابٍ اجتماعيّ؛ لأنه ليس ناتجًا عن كراهيةٍ بين طبقات المجتمع وفئاته، ولكنه ناتجٌ عن انعدامِ الرضا الاجتماعي بين شرائح المجتمع المصري.

أقول ذلك ليس على إطلاقه ففي المجتمع المصري مجموعة من التجمعات السكانية على حالة من الانسجام الاجتماعي شبه التّامّ، وهو ما سنناقشه لاحقًا، لكن ما أوَدّ الإشارة إليه أن هذه الحالة هي بين الكراهية والرضا، بالشكل الذي لا يسمح بحدوث عملٍ جماعيٍّ ولا بانقسامِ المجتمع بشكلٍ واضح، يوجد أثر وعدم انسجام، لكنّ أحدًا لا يسمح بأن يُحدث هذا الـ "عدم الانسجام" كراهيةً وانقساما في المجتمع، كما أن أحدًا لا يعمل - مؤسسات أو أفرادًا - على إذابة الشوائب بين طبقات المجتمع وفئاته، وهي الشوائب التي ترجع إلى عصورٍ سابقة فصلت فصلًا تامًّا بين الطبقات والفئات المكوِّنة للمجتمع المصري.

قلت: إن عدم الانسجام الحادث بين فئات المجتمع هو إحدى نتائج عدم الانسجام بين طبقاته، وقد يقول قائلٌ: ما العلاقة بين

طبقات المجتمع وفئاته، قد ينتسب أَخوان من طبقةٍ واحدة إلى فئتين مختلفتين، وأقول: إن الرشوة والمحسوبية والتعالي الطبقي شكّلت في عموم مصر في القرنين المنصرمين حدودًا فئويةً تكاد تتوازى مع الحدود الطبقية، حيث فرضت سياجًا طبقيًا على مجموعةٍ مُحدَّدَةٍ من المهن والأعمال، وبِغَضّ النظر عن التبريراتِ التي يمكن أن تسمعها من سَدَنَةِ الإدارةِ المِصرية حول مبررات وجود مثل هذا السياج، فإن ذلك فَرَضَ حظرًا على مجموعةٍ من الأعمال بحيث لا يكون الالتحاقُ بها مُتاحًا لكل ذي كفاءة.

اتصال عدم الانسجام الفئوي بعدم الانسجام الطبقي يتبدّى كذلك في حالات توريث المواقع في المؤسسات المصرية، بحيث يجعل هذه المؤسساتِ مُغْلَقَةً على من فيها، وهو ما يُضْعِف الأملَ في الحِراك الاجتماعي والصعود الطبقي.

لا يظن ظانٌّ أنني أقصد ما يشاع حاليًا عن توريث الحكم في مصر لنجْل الرئيس المصري، فالأمر أكثرُ تعقيدًا وخطورةً من تلك الإشاعات، حيث إن من يصلون إلى سنّ التقاعد في مصر في السنوات

الأخيرة من وكلاء الوزارات يرقى أغلبُهم إلى درجة مُستشارٍ ولا يترك موقعه، حتى إن بعض المديرين يَحدث معهم الأمرُ نفسه، بل إن هناك مؤسساتٍ في مصر لا يُحال فيها العُمّال ولا الموظفون في الدرجات الدنيا من السلم الوظيفي إلى التقاعد؛ وذلك لأنهم محطُّ ثقةِ ومودة رئيس المؤسسة. فإذا لم يكن المجتمع يستطيع القيامَ بتداوُلٍ للسلطة في وظيفة السعاة والعمال، فكيف يمكنه أن يُحدِثَ تداولًا للسلطة في منصب رئيس الجمهورية؟!

هكذا لم يعد مُتاحًا أمامَ طبقات المجتمع وشرائحه المختلفة غير التعليم؛ بُغيةَ الصعودِ الطبقيّ والتطورِ، وهو ما تمّ إجهاضُه تمامًا لأسبابٍ ثلاثة:

- أولًا: لِكَوْنِ التعليم لا يُساهِم في دفع الفرد للابتكار؛ فهو منظومةٌ تحمل من أسباب التخلف أكثر مما تحمل من أسباب التقدم، فهذا النظام التعليمي غاية الأمر لا ينجح في أكثرَ من إضافة كادرٍ إداريّ مصريّ بامتياز، أو عالمٍ بدرجةِ موظف.

- ثانيًا: يدفع النظام التعليمي إلى فصل المتعلم عن طبقته، بدايةً من الزّيّ المدرسي المُخَصَّص لدخول المؤسسة التعليمية، وانتهاءً بلغة العِلم في هذه المؤسسات التي لا تعرف ولا تشعر أنها لا تعرف ولا تهتم بأن تعرف عن المجتمع الذي تَنتسب إليه شيئًا.

هكذا غُلّقت الأبواب أمامَ الحركة فيما استقر السكون وبقي كلُّ شيء على حاله رغم اختلاف الأسماء والجذور، لكن البنية الاجتماعية والثقافية لم تختلف. أمّا من يستطيع - لظروف ليست عامةً ولا موضوعية - الإفلاتَ من هذا السياج الحديدي الرهيب، فإنه يصبح أحدَ عناصر النُّخْبة العربية التي تنظر إلى المحكوم باعتباره جاهلًا والحاكم باعتباره فرصة.

- ثالثًا: التنوّع في أساليب التعليم، وهو تنوع سلبي؛ بحيث لا يُثري المجتمعَ بل يجعله يعيش وكأنه جُزُرًا منعزلة معرفيًّا ووجدانيًّا، وهو ما يساهم أكثرَ في عدم وجود الانسجام الاجتماعي المنشود، وهو الشرط الأساسي الذي يتطلبه أي

تغيير، والذي مِن دونه لا يجب أن يسأل أحدٌ، لا عن عملٍ ثوريّ، ولا عن أي عملٍ جماعيّ مُؤثّر.

ليس غريبًا – وفق هذا التصور – أن تكون الثورةُ العُرابيةُ مُكوّنةَ بالأساس من فئةٍ مُنْسجمة، وهو نفسه ما ينطبق على رجال ثورة يوليو، أمّا ثورة ١٩١٩م فقد اتسمتْ بالأمرِ نفسِه، لكن من طبقة الأفندية الجُدُد الذين كَوَّنوا الأحزابَ وأَصْدَروا الصحفَ وعاشوا في أوربا، لكنهم حظَوا بالاحترام الكافي من بقية شرائح المجتمع بالشكل الذي مكّنهم من قيادته إلى هذا التحرك الذي نعلمه جميعًا. كما لا يصبح غريبًا أيضًا أن تنطلق حالاتُ الاحتجاجِ والإضرابات الأخيرة في مصر من مدن تَتَّسِمُ بقدرٍ كبيرٍ من الانسجام الاجتماعي مثل دمياط أو بورسعيد أو المحلة الكبرى.

إن هذه الملاحظة الأخيرة هي ما يتيح لنا أن نتساءل: هل ثمّةَ أماكنٌ محددة مرشحة للنشاطِ الثوري من غيرها؟ بمعنى: هل توجد مواصفاتٌ مُحَدَّدَةٌ للأماكن التي تحمل خلايا ثوريةً بغَضّ النظر عن الأسباب الأخرى، ومع عدم إغفالها كذلك؟

إن الطبيعة السكانية لمجتمعاتٍ مثل دمياط أو بورسعيد أو المحلة تكاد تختفي فيها التمايزات الفئوية وكذلك التمايزات الطبقية؛ حيث يغلب على كل مدينة من تلك المدن نشاطٌ غالبٌ يُدِرُّ ربحًا كافيًا يُشعر الجميعَ تقريبًا بالمساواة، كما أن وحدة أدوات الإنتاج وعلاقاته تجعل الهمومَ التي يمكن أن يتعرض لها أهلُ المدينة واحدةً تقريبًا، وهو ما يُعَزِّزُ من الانسجام الاجتماعي، ولذلك دائمًا ما تُحْدِثُ احتجاجاتهم صدًى واسعًا.

الشرط الآخر والهَامُّ في تصوُّري لحدوث أو قُلْ لاكتمال حركةٍ ثوريةٍ في مصر هو تضامن إحدى مؤسسات النظام القائم مع الحركة الثورية، هذا إن لم تكن هذه المؤسسة هي القائمَ بالعمل الثوري أصلًا، ففي الثورات الثلاث التي حدثت في مصر منذ ١٨٨٢م وحتى الآن حدث أن المؤسسة العسكرية قامت باثنتين من ثلاث، أما الثالثة فقد تضامنت المؤسسة التنفيذيةُ مع الثوّار؛ حين قدمت وزارة حسين رشدي استقالتَها احتجاجًا على نفي سعد زغلول ورفاقه.

ينبغي أن أشير أيضًا إلى أن هذه الشروط الموضوعية ليست وحدها الدافعَ للفعل الثوري في مصر، فإن شروطًا عامّة تشترك فيها كلُّ شعوبِ الأرضِ تقريبًا يجب أن تكون موجودةً، مثل وجود طبقةٍ أو فئةٍ تحظى بالاحترام من بقيّة طبقات المجتمع تستطيع قيادةَ المجتمع، وكذلك وجود حالة من الحَنَقِ العام، والظُّلْمِ الذي يشمل كلَّ طبقاتِ المجتمع إلى آخر هذه الشروط الموضوعية، إنما قصدت فقط الإشارة إلى ما يختص به الشعبُ المصري في هذا الأمر. كما يجب أن أشير إلى أن هذه الشروط الموضوعية مَحَلُّ خلافٍ؛ حيث يرى البعضُ مثلُ «لينين» ضرورة خَلْق تنظيمٍ سِرِّيٍّ مُنضبطٍ ومركزيٍّ من ثوريين مُحترفين ذوي خبرةٍ ودرايةٍ نظريةٍ للإعداد للانتفاضات المُسلَّحة ولتوجيه حركاتِ الجماهير الثوريّة[16].

[16] د. عبد الوهاب الكيالي: مرجع سابق، ص ٨٧٢



المؤلف

هو مصطفى بك بن محمد بن نجيب المصري، ولد سنة ١٢٧٧هـ ـ ١٨٦١م، أي بعد ميلاد الخديوي توفيق بتسع سنوات تقريبًا، وقبل مقتل الخديوي عباس في قصره بسبع سنوات.

في نفس السنة التي وُلِد فيها (١٨٦١م) أُثِيرتْ قضيةُ السُّخْرة في مجلس العموم البريطاني ونَعني سخرة العمال المصريين في حفر قناة السويس.

في هذه الأثناء كان ميلاد مصطفى بك بن محمد نجيب، الذي تُوُفِّي والدُه وهو في سنٍّ صغيرة، وتلقى تعليمه الأَوَّلِي بالمدارس التي كان قد أُلْغِي ديوانُها في ديسمبر ١٨٥٤م، أي قبل ميلاد مصطفى بن محمد نجيب المصري بسبع سنوات.

عُيِّن مؤلِّفُنا كاتبًا في بيت المال، وترقّى في المناصب إلى أن وصل إلى الديوان الخديوي الذي عُيِّن فيه وتَرقّى إلى أن صار وكيلًا لقسم الإدارة الخارجية.

كان لمصطفي بن محمد نجيب اهتمامٌ بالشئون السياسية بحكم وظيفته أوَّلًا، ثم بحكم خلفيته السياسية والثقافية ثانيًا، فاشترك في الحركة الوطنية، واتصل بالزعيم مصطفى كامل وأيَّدَه في كثيرٍ من مواقِفِه، ويبدو من كتاباتِه الكثيرة المخطوطة أنه كان على نفسِ التَّوجّه السياسي للزعيم مصطفى كامل، فعلى الرغم من مناهضته للاحتلال الإنجليزي لمصر إلا أنه كان من مؤيدي الخلافة العثمانية والسلطان العثماني.

كان مصطفي نجيب من مناهضي الثورة العرابية كما يبدو من كتابه الذي نحن بصدده، وذلك بالطبع سببُه عداءُ الثورةِ العرابيَّةِ وقياداتِها للسلطانِ العثماني الذي تخلّى عن العرابيين وأعلن عِصيانَ عرابي، بإيعازٍ من الإنجليز.. وهذا العداء بين مصطفى نجيب والثورة كان من أسبابه كذلك عملُ المؤلف كوكيلٍ لقسمِ الإدارةِ الخارجيَّةِ في الديوان الخديوي.

لمصطفى نجيب اهتماماتٌ بالأدب والتاريخ والشعر، وله مقالاتٌ كذلك في جريدة اللواء في بداية صدورها، وكان يوقِّع مقالاتِه - دون سببٍ مَعلومٍ لدينا - باسم: حاذق أو الواعظ.

توفي مؤلفنا صغيرًا؛ فقد وافَتْه المَنِيّة في الإسكندرية في جُمَادى الأُوْلَى سنة ١٣١٩هـ - سبتمبر ١٩٠١ ميلادية.

- مؤلفاته:
- حُماة الإسلام (جزآن).
- أحلام حاذق.

وهذه المؤلفات يبدو أنها تجميعٌ لمقالاته التي نشرها في جريدة اللواء إبَّان صدورِها.

ويقول زكي محمد مجاهد في "الأعلام الشرقية":

"وله مؤلفات مخطوطة لم تُطْبَع، عددُها ثمانية".

وبالبحث عن هذه المؤلفات في الأماكن التي تَيَسَّرَ لنا البحث فيها لم نعثر على أي مخطوط له غير هذا المخطوط الذي نقدم له.

منهـــج التحقيـــق



إن التعامل مع نصٍّ كالذي نقدمه أمرٌ يحمل بعضَ الصعوبة سواء في العمل، أو في تحمُّل وتفسير كثيرٍ من عبارات المؤلف المُتَحامِلة كثيرًا على المصريين - شعبًا وتاريخًا - خاصةً إذا ما وضعنا في الاعتبار كَوْنَ المؤلف أحدَ أقطاب الحركة الوطنية المصرية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأحد المُقرَّبين من الزعيم المصري مصطفى كامل. وهو ما يؤكد ضرورة الحِيادِ وأهميتَه في تحقيق النصوص عامة.

لكن الأخطر من تحامل المؤلف على المصريين وتاريخهم كان في المُغَالطاتِ التاريخية الكثيرةِ الواردة في النصّ، ولذلك كان منهج التحقيق يَعْتَمِدُ على الدّقّة في تَلقّي المعلومة من المؤلف والشّكّ فيها بشكلٍ بَدَهِي حتى يثبت العكس، ولذلك اتبع المُحقِّقُ الخطواتِ التالية:

- ضبط النص كما أراد له مؤلفه اعتمادًا على نسخةٍ من النسختين المعتمدتين في التحقيق، اللتين ثبت مدى تقاربها

لدرجة عدم اعتماد إحداهما كأصل، نظرًا لأنهما لا تختلفان إلا في لفظ أو حرف، كما أن تاريخ تملُّك النسختين في المكتبة التيمورية كان واحدًا، وهو ١٣٢٠هـ.

- مقابلة النسختين وإثبات الاختلاف بينهما.
- وضع إشارة في نهاية كل صفحة من صفحات النسخة (هـ)، مع عدم إغفال الإشارة في الهامش عند نهاية كل صفحةٍ من النسخة (م).
- تصويب الأخطاء النحْوية الواردة في أي من النسختين والإشارة إلى ذلك في الهامش.
- مناقشة المغالطات التاريخية التي أوردها المؤلف واستشهد بها، مع عرض آراءِ كثيرٍ من المؤرخين جول المُغالطة الواردة، وإضافة رأي المُحقِّقِ أيضًا، كل ذلك في الهامش على أن يظل المتن حاملًا لنصِّ المؤلف كما أراده.

- تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النّبويّة من مَظانّها، وذلك لإعانة القارئ على تَلَقّي النصّ دون الحاجَةِ إلى الرجوع لمصادرَ أخرى.
- وزن أبيات الشعر الواردة في النص وشرح ما استَغْلَق من ألفاظها، وكذلك شرح ما استغلق من ألفاظ النصّ عامّة.
- التعريف بالأعلام والأماكن الواردة في النص كلما أمكن ذلك.
- إلحاق النص برصدٍ لحالات العصيان والتّمرُّد والثَّورَةِ التي قام بها المصريون في القرن التاسع عشر، وتحديدًا منذ سنة ١٧٩٨م وحتى سنة ١٩٠٠م، ليكون ذلك مُعينًا على فَهْم الخلفية السياسية والاجتماعية التي أُلِّف النصُّ في ظلِّها.
- عمل مجموعة من الفهارس لتكون مُعِينة على التعامل مع النص من أيّة زاوية كانت؛ وهذه الفهارس هي:

١ - فهرس الآيات القرآنية.

٢ - فهرس الأحاديث النبوية.

٣- فهرس قوافي الأشعار.

٤- فهرس الأعلام.

٥- فهرس الأماكن والبُلدان.

٦- فهرس القبائل والمذاهب.

٧- فهرس الوقائع الحربية.

٨- فهرس الكتب الواردة بنص المؤلف.

وصفُ النُّسَخ الخطِّيّة

النسخة الأولى

هي النسخة رقم ١١٥ تاريخ تيمور، وقد عُنونِت بـ: "رسالة في وصف المصريين وخروجهم على الخلفاء". وكُتِبَ تحت هذا العنوان: "لبعض أفاضل الكُتَّاب".

تقع هذه النسخة في أربعٍ وعشرين صفحة، وعدد الأسطر في الصفحة ١٩ سطرًا، بين ستٍّ إلى عشر كلمات في السطر. حالة النسخة جَيِّدَة، وجاء نَسْخُها بخطٍّ جَيِّد عاديّ حديث، غير مُؤرَّخَةٍ، وليس بها اسم الناسخ، كما أنه لا توجد تَمَلُّكَاتٌ على صفحة الغلاف إلا خاتم أحمد تيمور باشا فقط.

حصل المُحَقِّقُ من هذه النسخة على صورةٍ ورقِيّةٍ من ميكروفيلم رقم ٢٧٤٠٧ بدار الكُتُبِ والوثَائِقِ القوميّة. وقد رَمَزْتُ لهذه النسخة بالرمز (هـ).

النسخة الثانية

هي النسخة رقم ٤٨٩ تاريخ تيمور، وهي نسخة قريبة الشبه بالأولى، لدرجة أن المتصفح للنسختين يظنّ أن إحداهما منسوخة من الأخرى، دون تحديدِ أيّهما هي النسخة الأصل وأيهما المنسوخة عنها، وذلك نظرًا لعدم وجود قَرينةٍ مادّية تؤكّد إمكانية ذلك.

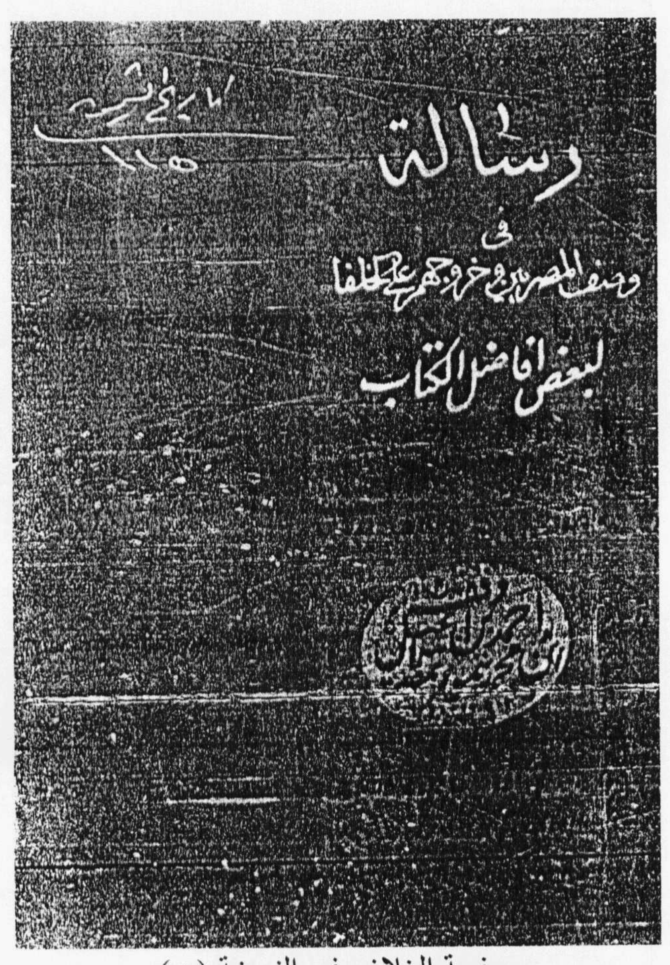
عُنْوانُ هذه النسخة كما جاء على صفحة الغلاف: "رسالة في المصريين وخروجهم على الخلفاء والسلاطين". وتحت هذا العنوان: "مصطفى بن محمد نجيب".

تقع هذه النسخة في تسع عشرة صفحة، وعدد الأسطر في الصفحة ١٨ سطرًا، بين ١٣ و ١٨ كلمة في السطر. حالة النسخة جيدةٌ كسابِقَتِها، إلا أن خطَّها أصغرُ من النسخة الأولى، وإن كانت منسوخة بخطٍّ جَيِّد حَديثٍ هي الأُخْرى من خطوط القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد خَلَتْ هذه النسخةُ أيضًا من اسم الناسخ، كما خَلَتْ من أي تواريخ، اللهم إلا من تاريخ تَمَلُّكِها في المكتبة التيمورية وهو ١٣٢٠هـ.

وقد حصل المُحَقِّقُ من هذه النسخة على صورةٍ ورقيةٍ من ميكروفيلم رقم ٥٠٦٤٠ بدار الكتب والوثائق القوميّة، وقد رَمَزْتُ لهذه النسخة بالرمز (م).

نماذِجُ من النّسَخِ الخَطّية



رسالة
في
وصف المصريين وخروجهم على الخلفا
لبعض أفاضل الكتاب

صفحة الغلاف في النسخة (هـ)

على النار في حرقها والماء على [illegible] والشمس على [illegible] والطبائع على

[illegible] في كل بلد [illegible]

من بعض أهل مصر لم يلعن صالح بن ثمود ولا النصارى من اليهود لأن

فضل الذكي يحل في جوف كل [illegible] ويخرج من [illegible] وكيما [illegible]

وطبائع من [illegible] وخيرات [illegible] فضل ظاهر للنعم والمحن

لكن الجهل عندنا على هذه البلدة [illegible] والهوة نار على نار

فإن شتم أمير المؤمنين وخليفة المسلمين فقد شتم الذين خلوا من قبله

فهذه البلاد التي لا يحرج للكثير من أهلها اسم الإمام والحاكم إلا إذا

كان مقرونا بالقوة والبطش ولقد صدق من قال كل شيء [illegible]

[illegible] فقد رأينا [illegible] والأمور التي لا يستطع [illegible]

كالشورى والحكومات المسؤولة وغيرها [illegible] بلاد الروم أخرى

مزارع للحال ومنابت للشرف ونجوما تهدي الناس وهي كأنها [illegible]

أشجار ذات ثمار يانعة على قارعة الطريق يأكل منها الصادر والوارد

فما بالها قد نزلت عن رتبتها في هذه البلاد وصارت [illegible] لأنه لم يجر

بين جريها المطلق وبين الأعراض [illegible] سور من الحكمة

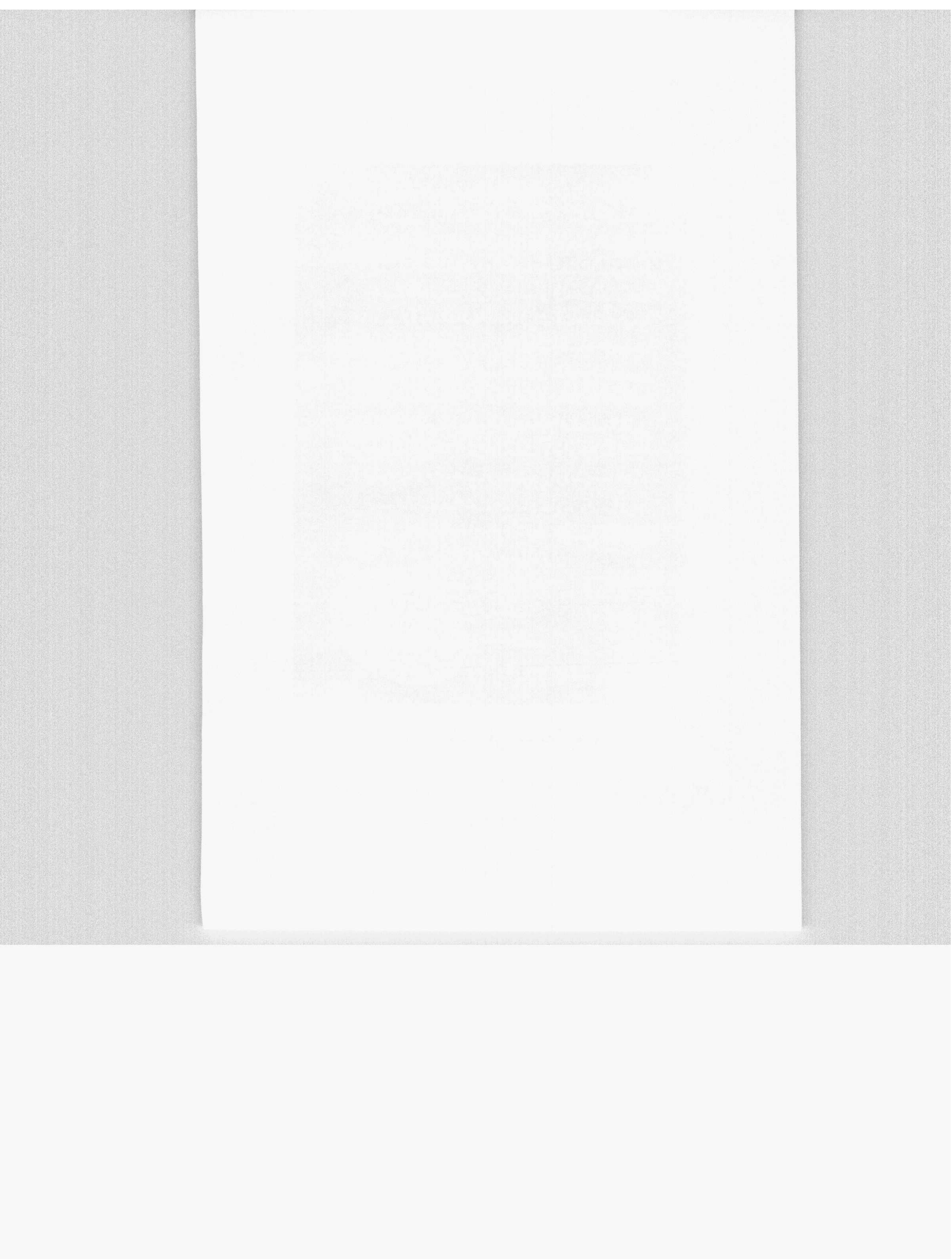
أصبحت السكنى في بلاد [illegible] والهوام [illegible] أهون على العاقل

من سكنى هذه البلاد فإن تلك يمكن التوقي من شرورها [illegible]

[illegible] مقطوع المعاش [illegible]

صفحة (١٨) في النسخة (م)

الصفحة الأخيرة في النسخة (هـ)



النـــــص



بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من قسم الحظوظَ   فلا عتاب ولا ملامهْ
أعمى وأعشى ثم ذو   بصر وزرقاء اليمامة[17]

سبحان من كرّم مكّة المكرّمة بالكعبة، ونوَّر المدينة المنورة بالتربة[18] وحكم بالخسف على سدوم[19]، وبالقلب على ثمود[20]، وبالإبادة على أرضِ عادٍ لتكذيبهم نبيَّهم هود، حتى صحّ للقائل أن يقول:

وإذا نظرت إلى البلاد وجدتها   تَشقى كما تشقى العباد وتسعد[21]

---

[17] الأعشى: الذي يضعف بصرُه ليلًا، والمؤنث: عشواء. والعُشوة ـــ بضم العين ـــ: الظلمة، والعَشوة ـــ بفتح العين ـــ: ما بين أول الليل إلى ربعه، والبيتان من بحر مجزوء الكامل.

[18] المقصود بالتربة: قبر النبي ﷺ.

[19] سَدوم: اسم القرية التي أُرسل إليها نبي الله لوط، و لم يرد ذكرها في القرآن.

[20] ثمود: قبيلة من العرب البائدة، وهم قوم نبي الله صالح عليه السلام، وقد ذكرت هذه الكلمة في القرآن ستًا وعشرين مرة في إحدى وعشرين سورة، وقد ذكرت في آيات كلها مكية عدا الآية (٧) من سورة التوبة، والآية (٤٢) من سورة الحج فهما مدنيتان.

[21] البيت من بحر الكامل.

سألتني ـ أطال الله بقاءك ـ عن مصر، وعن الأسباب التي صَيَّرتْها دارَ فتنةٍ وبلاء في هذه الأيام، مَهبطًا لكل خارج على الإمام، مأوًى للحاكين لنقمه، والصامنين عن نعمه، ملجأً لجماعة الزعانف[22]، المدفوعين بيد الأجانب، الناطقين بتلقينهم.

وقد أخذ العجبُ منك كلَّ مأخذ من ظهور الفساد بهذه البلاد إلى هذا الحدّ، حتى صار حضرةُ سلطان المسلمين، وخليفةُ رسول رب العالمين القائم في مقام النيابة عن رسول ﷺ، يُشتم فيها جهرًا، من جانٍ معتدٍ أثيم متمادٍ في غيِّه، وأن يكتب ذمّه بأنواع المَسبَّة في أوراق، ويُنادى عليها في الأسواق، وتجدُ مِن المسلمين مَن يشتريها، فضلاً عمن يبيعها[23] ولا ذنبَ للسلطان إلا أنه مسلم، ولا جريمةَ لحكومته السّنيّة إلا أنها حافظة للشاتم وأمثاله أنْفُسَهم وأموالَهم وأعراضَهم، والقومُ سكوتٌ كأنما على أبصارهم غشاوة، لا يأخذ أحدٌ منهم على يد الشاتم، ولا يردعه، مع أن حلي الأمراء يوم مفتخرهم من بعض إحسانه وعطاياه، لأن الأمير منهم لم يصل إلى رتبة، ولم يتقلد وسامًا

[22] الزعانف: كل جماعة ليس أصلهم واحدًا، أو: رديء كل شيء وأرذله، والمفرد: زعنفة.

[23] المقصود: الصحف، فهي التي تباع كأوراق في الأسواق.

يتحلى به صدره إلا وعليه طغراؤه[24] الشريف، واسمه الكريم، فإن كـان العظيـم منهم لا يَغار على الدين، ولا يتألم لما يصيب جماعة المسلمين، ألا يغار على أنّه عبدٌ لسلطان مشتوم من ذِمِّيٍّ[25]، خادم[26] لدولة مذمومة من سوري[27]، وكلاهما ليس له قوتٌ إلا من فضلات الأيدي بهذه البلاد؛ التي هي ملك للسلطان، وفيها منبره وحكمه، وموضع سلطنته ومنار علمه، ووالٍ من طرفه، فإن لم يكن الذَّوْد عن حوضه لارتباط الدين أو المذهب أو الجنس، فليكن من باب المجاملة اللازمة على كل نفس.

---

(24) الطغراء هو التوقيع الذي يكون في أعلى الكتب والرسائل غالبًا، وشهادات التقدير، تتضمن نعوت الحاكم وألقابه، وأصلها: طورغاي، وهي: كلمة تتارية استعملها الروم والفرس، ثم استعملها العرب.

(25) الذِّمِّي: من أعطي عهدًا يأمن به على ماله وأهله وحياته وعرضه، وهم أهل الكتاب ومن جرى مجراهم.

(26) كلمة خادم معطوفة على كلمة عبد.

(27) السوري في جمعية مصر الفتاة وجريدتها ليس واحدًا. فمنهم (أديب إسحاق) ويبدو أنه هو المقصود هنا، وكذلك (يعقوب صنوع) الذي سافر إلى فرنسا وأصدر هناك صحيفة "أبو نظارة" التي كانت تهاجم الأجانب وكذلك الحكم العثماني. أما السوري في تركيا الفتاة فيبدو أنه يقصد (مراد بك) وإن لم يكن سوري الأصل.

وقد أدَّاني سؤالُك عن هذه المسألة إلى الاشتغال باستطلاع مبدئها واستقراءِ عِلَلِها التي أدت إليها، وأسبابِها الحقيقيّة التي أوجبت السكوتَ عليها، والرِّضاء من بعض هذه الأمة بها، ليكون الجوابُ لك عنها صحيحًا لا مُبْتَدعًا ولا مُخْتَرَعًا، فتراجعتُ بها لالتماس أوَّلها، فلم أكد أصل إليها إلا وتَبَدَّتْ لي حادثةٌ أخرى أكبرُ منها قامت بها طائفةٌ من أهل هذه البلاد في وجه سلطانها، فالتمستها، فأسلمتني إلى شرٍّ منها.

وهكذا صرت ما بين فتنةٍ تَجرُّني، وبلاءٍ أَجُرُّه، حتى استقبلت فيها أيامَ الفتح الإسلامي، وعهدَ خروجها من جاهليتها، وقولَ عمرو بن العاص عنها حينما وصفها لسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: "وهي لمن غَلَب"[28] فقلت: نِعمَ الجواب جواب داهية العرب![29].

---

[28] هذه الجملة ضمن كلمة طويلة يمتدح فيها عمرو بن العاص مصرَ لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب لكي يزين له فتح مصر، وكان ذلك سنة ثماني عشرة من الهجرة بعد فتح مدينة دمشق. وقتها استأذن عمرو من عمر بن الخطاب في فتح مصر، فقال عمر: إن فتحتها كانت قوةً للمسلمين.

[29] المقصود بداهية العرب: عمرو بن العاص — ط.

وأردت أن أتعرّض لبيان ذلك، وما يستدعيه هذا الوصفُ من فَقْد الإرادة من معظم أهلها، وضعف العزيمة وأفق الرأي في أغلبهم، وكون بعضهم مسخَّرًا بلا عقلٍ ولا بَصيرة.

ثم أُشيرُ إلى أن حالة البطش والقوة القائمتين بهذه البلاد الآنَ مما تزيد هذه الخصالَ في هذه الطائفة، وتستدعي وجودَ التنافر والابتعاد عن حضرة السلطان والسكوت على شتمه أكثر مما يُظَن.

ولكني وجَدْتُ هذه البلدة - في كل طبقاتها المتفاوتة، ومنازلها المختلفة - مواطنَ مصائب وأكدار، وقد أوجد الله فيها طائفةً جعلها عِلَّة لحلّ اجتماع الكلمة، ومصدرًا لمنع الاتحادِ والأُلْفَةِ، وكأنّما ليس هناك مِن عملٍ قبيح، ولا بِدعةٍ فاحشةٍ ولا نـزْع يَدٍ من طاعة، ولا حسدٍ، ولا غلٍّ، ولا تأوُّلٍ، إلا خارجًا عنها، ومُبْتَدَءًا منها.

فأصدقُ جوابٍ وأخصره وأملحه وأوقعه نقلُ هذه الوقائع على علّاتها كما وقعت في الذهن، وأصابتها الحافظة، وسردها الخاطرُ، وتَرْكُ الرأي فيها لمن ينظرها؛ فإن الحوادث تتجلى لكل عينٍ بشكل، ويأخذها كلُّ لسانٍ بوصف.. دع عنك أيام السجود للحجر، وأزمان

تعظيم المَدَر والشَّجَر، وعهدَ عبادة أنواعِ الحيوان، وأوقات تعظيم الثيران[30]، وما بعد ذلك من أزمنة الإسرائيليين، والأهرامات والمسَلّات والمباني الضخمة، والأعمال الجافية، التي هي محلُّ الإيهام برضوخ هذه الأمة للذل، وتطاوُل يد حكامها بالظلم والعدوان، فقد كان أهلها في ذلك الحين مشاركين لجميع أهل الدنيا، وكانت كلُّها في عماءٍ قديمٍ وجهلٍ مُسْتَديم، سواءً في ذلك يونانها ورومانها. وانظر معي في أمرها، ولِما صارت إليه بعد الإسلام، بعد أن أرشدها الله للدين القويم، وهداها للصراط المستقيم، والناس على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض، والأحكامُ منصوصة، والشريعةُ مشهورة، والإسلام في ريعان شبابه، وإبَّانِ ظهوره.

[30] يتحدث المؤلف عن المعتقدات المصرية القديمة بالتلميح بنقصٍ في الدين والعقل متناسيًا أن البشرية كلّها في هذه الفترة من عمر الانسان على الأرض لم تكن تعلم من معنى لكلمة دين شيئًا ذا بال بالمقارنة بقدماء المصريين.

قال الإمام العَيني في تاريخه "عقد الجمان"[31]: روى أرباب السِّيَر؛ منهم هشام[32]، والواقدي[33]، وسيف[34]، وغيرهم، عن عقبة، عن يزيد الفَقْعَسِيّ، قال:

---

[31] عقد الجمان: وليس عقود الجمان كما كتبها المؤلف في نسختي المخطوط، وهو كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، وهو التاريخ الكبير، يوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ. والإمام العيني هو: بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن الحسين بن يوسف بن محمود الشهير بالبدر العيني، ولد في بلدة عينتاب بين حلب وأنطاكية في ١٧ رمضان سنة٧٦٢ هـ، وتوفي سنة ٨٥٥ هـ. من مؤلفاته: الروض الزاهر في سيرة المالك الظاهر، السيف المهنّد في سيرة الملك المؤيد. تحفة الملوك في المواعظ والرقائق.

[32] هشام: يبدو أنه هشام بن محمد أبو النضر بن السائب بن بشر الكلبي، مؤرخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها، من أهل الكوفة، كثير الكتب، منها: ألقاب قريش، ألقاب اليمن، الموؤدات، افتراق العرب، أسواق العرب، نسب الخيل، الأصنام، وكانت وفاته سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م.

[33] الواقدي: هو محمد بن عمر بن واقد من أقدم المؤرخين في الإسلام، ولد في المدينة سنة ١٣٠هـ، وانتقل إلى العراق سنة ١٨٠هـ، فولي القضاء ببغداد إلى أن توفي فيها سنة ٢٠٧هـ، مِنْ كُتُبه المغازي النبوية، فتح أفريقية.

[34] سيف: يبدو أنه سيف بن عمر الأسدي التميمي، من أصحاب السير، كوفي الأصل، اشتهر وتوفي ببغداد. من كتبه: الجمل، والفتوح الكبير، والردة. توفي سنة ٢٠٠ هـ /٨١٥م.

كـان عبـد الله بـن سـبأ(٣٥) يهوديًّـا مـن أهـل صـنعاء، وأمّـه يهوديّـةٌ سوداء، أسلم في أول خلافة سيدنا عثمان بن عفان ا، وكان قصده بَوَار الإسـلام، فكـان يتنقـل في البُلـدان، يحـاول الفتنـة، فطـاف الحجـاز، والشام، والعراق، فأخرجوه، ولم يتأتَّ لـه مـا يريـد، وعُـرِف بالـشرِّ في هذه الأمصار، فلم يسعْه فيها مقـام، وكلـما دخـل مـصرًا(٣٦) نفَـوه عنـه، فدخل مِصرَ وطاف في كورها(٣٧)، وأظهـر الأمـر بـالمعروف، وتكلَّـم في الرَّجْعـة(٣٨)، فقررهـا في قلـوب بعـض تلـك الطائفـة، وكـان يقـول:

---

(35) عبد الله بن سبأ: رأس الطائفة السبئية، وكانت تقول بألوهية علي، ومن مذهبه رجعة النبي ﷺ وكان يقول: العجب لمن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب برجوع محمد. نقل ابن عساكر عن الصادق: لما بويع عَليّ قام إليه ابن سبأ، وقال له: أنت خلقــت الأرض وبسطت الرزق، فنفاه إلى ساباط المدائن، حيث القرامطةُ وغلاة الشيعة.وقد توفي ابــن سبأ سنة ٤٠هــ /٦٦٠ م.

(36) مصرًا؛ أي: بلد.

(37) الكُور – بضم الكاف وتسكين الواو: جمع كورة، وهي البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحالّ.

(38) الرجعة ويقصد رجعة سيدنا محمد ﷺ، وكان يتعجب من الذين يقولــون برجعــة عيسى، وينكرون رجعة محمد ﷺ.

"العجب ممن يزعم أن عيسى عليه السلام، يرجع إلى الدنيا، ويُكَذِّبُ رجعة محمد ﷺ، وقد قال الله ﷻ له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[39].

وهو مع ذلك يُنَفِّر الناس من عثمان. ثم شرع في تقرير الوصية التى معناها: أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وما زال بالطائفة التي أغواها على هذا الحال حتى خرج معه من مصر في شوال أربعةُ رفاق من أهل خربتا[40] وما جاورها من قرى البحيرة مع أربعة أمراء، وكان هو أولَ وفد قدم المدينة يحاسب سيدنا عثمان بنَ عفان على أعمال عماله الأمويين بالأمصار، فاجتمعوا عليه مع غيرهم من أهل تلك الجهات، وتألبوا على خليفتهم، الذي زوجه رسول الله بنتيه[41]، وسمي ذا النورين، وهذه مما اختص به دون الأصحاب وقتلوه ظلمًا، فمات

---

(39) الآية رقم ٨٥، من سورة القصص، مدنية.

(40) خرَبتا: كورة من كور مصر ناحية الحوف الغربي، أو قريبًا من الإسكندرية، ولها ذِكرٌ في أخبار محمد بن أبي بكر الصديق.

(41) المقصود: ابنتا رسول الله ﷺ، رقية، وأم كلثوم.

شَهيدًا مُبشَّرًا بالجنة على بلوى واختبارٍ بعد السبِّ والتعطيش والحصر الشديد والمنع من القوت، وأطنُّوا[42] إصبعين من أصابع زوجته.

ولم يكن ما فعله من تجهيز جيش العسرة[43]، وحمد رسول الله مسعاته، وقوله له: (ما على عثمان بن عفان ما عمل بعد اليوم)[44]

ولا احتجاجه عليهم، ولا إفحامه رادعًا لهم، ولا كاسرًا من فَريهم حتى وطئوا أضلاعه بعد موته، وألقَوا على المزبلة جسده بعد سحبه، فأُهين - بهذا التطرُّف والغُلوّ في الافتئات _ مقامُ الخلافة الذي كان حفاظَ الدين وكانت تلك الصدمةَ الأولى.

أُهين ذلك المنصب الشريف، الذي كان المرجعُ إليه في حلّ المشكلات، والضياءَ في ظلمة الشُّبهات، واحتلبوا بذلك دمًا لا تطير رغوتُه، ولا تسكن فورتُه، ولا يكلّ طالبه.

---

(42) أطنَّ ساقه: قطعها.

(43) جيش العسرة: جيش المسلمين في غزوة تبوك، وفي التنزيل العزيز: ﴿والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾

(44) الحديث بلفظ (ما ضرَّ ابنَ عفان ما عمل بعد اليوم.. يرددها مرارًا) أحمد بن حنبل ٥: ٦٣ بسندٍ صحيح، الترمذي ٣٧,٢ وحسّنه أيضًا.

وكيف يضيع دمه وقد انفصمت بذلك عروة الوحدة، وانحلت رابطة الاجتماع، ونَجَم عن التفَرُّق في الخلافة الافتراقُ في الدين نفسِه، فآلت الأمة إلى الشقاق، وافترقت على مئات من المذاهب المختلفة، وابْـتُلِي الدينُ وأهلُه بالمنازعة؛ التي انقضى الزمانُ والأمّة تتكلَّف علاجَها، ولا تُعانُ عليه، ومن يَردّ التعدد إلى توحد، والافتراق إلى اجتماع، وهو من وظائف الخلافة التي حدَث عنها هذا الشقاق؟!.

مَن غُصَّ داوى بشرب الماء غصَّتَه
فكيف يفعل من قد غُصَّ بالماءِ؟[45]

ثم اتصلت بهذا الأمر الذي افتتحته هذه الطائفةُ من أهل مصر طوائفُ البلايا، وكوارث الرزايا[46] والفتن المتصلة، والمحن المترادفة،

---

[45] في البيت من بحر البسيط.

[46] الرزايا: المصائب، والمفرد: رزيّة، وهي تسهيل من رزيئة.

الحروب الدائمة، كحرب الجمل[47]، وكوقائع صفين[48]، وكيوم النهروان[49].

وانتهت بما انتهت إليه في اليوم الذي تحوَّلت فيه الإمامة مُلكًا كِسرويًّا، والخلافة غصبًا قيصريًّا، وخرجت بعض الناس من جرّاء هذه الفَعلة إلى حُكْمِ الفجّار، بل إلى حكم الكفّار، وجُحِدَ الكتابُ[50]، وَرُدَّتْ السُّنَّة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم استهلتْ السَّنة الثامنة والثلاثون، فانتفض بعضُهم على محمد بن أبي بكر[51]؛ صاحب رسول الله، ورفيقه في الغار، وناهيك بأبي بكر

---

(47) حرب الجمل: هي الواقعة الشهيرة التي تدخلت فيها السيدة عائشة أم المؤمنين، وقد كانت سنة ٣٦هـ.

(48) وقائع صفين: هي مجموعة وقائع فاصلة بين جيش علي وجيش معاوية، وانتهت بالتحكيم الذي خدع فيه عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري.

(49) يوم النهروان: معركة بين بعض فرق الخوارج وجيش معاوية بن أبي سفيان بعد مقتل الإمام علي وكان الخوارج نحو ٥٠٠ فارس، وهُزموا في النهاية. المغرب ٢: ٣٣٥.

(50) المقصود بالكتاب: القرآن الكريم.

(51) حقيقة اغتيال محمد بن أبي بكر هي: لما تولّى علي بن أبي طالب الخلافة ولّى مصر لسعد بن عبادة الأنصاري، فأقام قليلاً ثم مات، فعقبه محمد بن أبي بكر فوصل إلى مصر سنة ٣٧هـ فهدم دور شيعة عثمان بن عفان، ونهب أموالهم، وسجن ذراريهم، فبلغ ذلك معاوية فبعث عمرو بن العاص في جيش مصر فحدث قتال عنيف بينه وبين محمد

ومنزلته في الإسلام، وموضع ذراريه[52] في قلوب المسلمين، وكان ذلك بدعوة معاوية بن خَديج[53]، فقتلوه، ثم وافق ذلك البعضُ على إلقائه في جيفة حمار، وحرقوه بالنار، وهو أول عامل بويع له، ثم فعل به هذا الفعل في بلدة إسلامية، بل أول إنسان خالفت فيه جماعةُ المسلمين قولَ النبي ﷺ :(إذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة)[54]. أي بحق.

بن أبي بكر، وانتهى بانتصار عمرو، فهرب محمد، فظفر به معاوية بن حديج، فقتله، ثم جعله في جيفة حمار، وأحرقه بالنار سنة ٣٨ هـ، وكانت مدة ولايته خمسة أشهر. مع هذه الأحداث، ما أدخل المصريين في كل هذا؟ ولماذا يتهمهم المؤلف بأنهم قتلة محمد بن أبي بكر؟

(52) وردت هذه الكلمة في النسخ الخطية بالزاي المعجمة، وصوابها كما أثبتنا. والذراري جمع ذرية، وهي نسل الإنسان. انظر: ابن منظور المصري: لسان العرب، ج ١، ص ١٥٦.

(53) معاوية بن خَديج: هو معاوية بن حديج بن جفنة بن قنبر أبو نعيم الكندي، الأمير الصحابي قائد الكتائب، والي مصر، شهد موقعة صفين وكان في جيش معاوية بن أبي سفيان، وولّاه معاوية إمرة جيش جهَّزَه إلى مصر وكان الوالي عليها محمد بن أبي بكر الصديق من قبل علي بن أبي طالب فقتل محمدًا وأخذ بيعة أهل مصر لمعاوية، ثم ولي مصر سنة ٥٠هـ، وعزل عنها سنة ٥١هـ. وتوفي سنة ٥٢هـ / ٦٧٢م

(54) الحديث عند أبو داود: أضاحي ١٢، والترمذي: ديات ١٤، النسائي: ضحايا ٢٢، ٢٦، ٢٧، وابن ماجة: ذبائح ٣، والدرامي: أضاحي ١٠، وأحمد بن حنبل: ٤: ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

ومعاوية هذا من قُوَّاد الإسلام بعد الفتح، وهو ممن يوالي عُثمان الذي اشتركت في قتله تلك الفرقُ التي سافرت من مصر، ثم قَتل محمدَ بن أبي بكر على زعم أنه من قتلة عثمان رضي الله عنه.

ثم دالت الدولة للعباسيين، وانصرفت عن الأمويين[55]، وكان (طولون) مملوكُ الخليفة المأمون[56]، أنجب بولدٍ سمّاه: أحمد[57]، فلما كبر اتّصف بالشجاعة، وسُمع بالقوة.

فما زالت الأيام تُدنيه من مقام الخلافة، حتى ولّاه المتوكل[58] عاملًا له على مِصر، في أواخر سنة أربع وخمسين ومائتين، أو خمس

---

[55] انتهت دولة الأمويين وبدأت دولة العباسيين سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفي نفس السنة تولّى أول الولاة العباسيين على مصر وهو الأمير صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان ذلك في شهر ذي الحجة.

[56] المأمون: هو أبو جعفر عبد الله المأمون بن هارون الرشيد توفي وعمره ٤٧ سنة ونصف.

[57] أحمد بن طولون: هو مؤسس الدولة الطولونية التي حكمت مصر سنة ٨٧٠م وحتى عام ٩٠٥م، و أبوه طولون أحد الموظفين عند الخليفة المأمون، و أمّه جارية اسمها قاسم أو هاشم، و قد وُلد أحمد بن طولون في سنة عشرين ومائتين، وتوفي ليلة الأحد، العاشر من شهر ذي القعدة سنة سبعين ومائتين.

[58] المتوكل: هو أبو الفضل جعفر المتوكل على الله، قتله ابنه سنة ٢٤٧هـ، وكان عمره ٤٠ سنة.

وخمسين[59] وكأنما كان مُقْصِيًا له عن حضرته؛ لأنه دخلها في حالةِ احتقره كلُّ من رآه فيها لضيق ذات يده.

قال ابن وصيف شاه[60]: «كان بمصر رجلٌ من الأعيان يُقال له "علي بن مَعْبَد البغدادي"، وكان في سَعةٍ من المال، فلما بلغه حضور الأمير خرج إلى ملاقاته، فتلمح منه أنه في ضيقِ حال فأرسل إليه عشرة آلاف دينار، فقبلها، ورأى بها موقعًا، وتسامع الناسُ بذلك، وحَظِيَ الرجل عنده، فكان نعم الواسطة إليه، وكان لا يتصرف في شيءٍ من الأمور إلا عن رأيه». ثم استقامت له الأمور، ودرت له اللقحة[61] وترعرعت في مدته البلاد. فصدق فيه قوله – تعالى-:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ ﴾[62]

---

(59) تولى أحمد بن طولون حكم مصر سنة خمس وخمسين ومائتين. انظر: بدائع الزهور ١: ١٦.

(60) ابن وصيف شاه: هو محمد بن العباس بن وصيف الغزي روى الموطأ وتوفي سنة ٣٧٢هـ عن سن كبيرة.

(61) اللَّقْحَة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن، والمرأة المرضعة.

(62) الآية رقم (٧) من سورة العلق، مكّيّة.

ووسوس له شيطانه، ونادى بالاستقلال، وسَطَا على الخلافة بسيفها، وادَّعاها ظلمًا لنفسه، وخرج على مولاه المعتضد[٦٣]. وانفرد بخراج مصر، وجمع الجيوش وحارب الخليفة بعسكر مصر وغيرها أشدَّ المحاربة، واستحلّ ما بها من المسلمين إشهارَ السيوف، وتسديد النبال، ورفع الرماح في وجه جيوش الخلافة. واستماتوا في هذه الحروب حتى عجز المعتضد عنه وأرسل يطلب الصلحَ، ويخطب ابنته لابنه[٦٤]، وكان ذلك.

وسيّرها له من مصر إلى بغداد في ستة شهور، تمشي له مشي السحابة وارتكب في ذلك من السفه والتبذير بها لم يُسمع به أبدًا. وهو أول عاملٍ بايع وأعطى صفقة الأمان ثم خان..

---

[63] المعتضد: هو أبو العباس أحمد المعتضد بالله بن الموفق حفيد المتوكل توفي وعمره خمس وأربعون سنة.

[64] لم يخطب المعتضد ابنةَ أحمد بن طولون لابنه، بل خطب ابنة خمارويه واسمها قطر الندى، لنفسه، وكان ذلك في سنة ثمانين ومائتين للهجرة.

وقد تسامع الناسُ بالذي جرى من بعض أهل مصر ومن عاملها، فكانت هذه الحادثة من أشأم الحوادث، وأقبحِها أثرًا ومَوقِعًا في أمر الدين وجماعة المسلمين؛ مزَّقت الخلافةَ العباسية كلَّ مُمَزَّق، وفتحت عليها بابَ التجزيء والتبديد.

وحذا حذْوَه العمالُ، فاستقلت جهات بُخارَى، وصارت تُدعى (مملكة الترك الشرقية)، وجهات أفغانستان، وهم نحو ستة ملايين أو ثمانية من سكان الجبال والبوادي، وصارت المملكة الغَزْنَوِيَّة[65]، ثم صارت الدولة السلجوقيّة[66]، وتبعهم سيف الدولة بن حمدان[67] بالموصل. هذا في آسيا.

---

(65) المملكة الغزنوية: حكم سلاطينُ غزنة في خراسان وأفغانستان وشمال الهند من سنة ٢٦٦هـ إلى سنة ٥٨٢ هـ.

(66) الدولة السلجوقية: هي مملكة حكمت أقاليم مترامية الأطراف في آسيا الوسطى من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وجَدُّ هؤلاء الأفراد هو سلجوق ابن دقاق، وقد عرف بتيموريلغ أي: ذي القوس الحديد.

(67) سيف الدولة الحمداني: هو سيف الدولة أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء بن حمدان ولد سنة ٣٠٠ هـ وتوفي سنة ٣٥٦ هـ.

واستقل بأفريقيا بنو الأغلب[68]، وهم الذين كان ملكهم من حدود مصر إلى حدود المغرب الأقصى. واتبعوا كلهم مسلكَ ابن طولون، حَذْوَكَ القُذَّةَ بالقُذِّ[69] فأصبحت الدولة العباسية مشذبة الأطراف، مقطوعة الأوصال، مَفْتُوحٌ عليها بابٌ لا يُسَدُّ، وكان هذا من أهم أسباب انحطاطها، وأكبر الدواعي التي أطمعت أخصامها[70] فيها.

---

[68] بنو الأغلب: حكموا في أفريقيا والجزائر وصقلية من سنة ١٨٤هـ إلى سنة ٢٩٦هـ، وأول حكامهم هو إبراهيم الأول بن الأغلب التميمي، تولّى الحكم سنة ١٨٤هـ وحتى ١٩٧هـ.

[69] القذة: ريشة الطائر كالنسر أو الصقر. وفي الحديث: (لتركبن سنن من كان قبلكم حذوَ القذة بالقذة)، يُضرب مثلًا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان.

[70] الأخصام جمع خُصم - بضم الخاء - وهو الجانب، والناحية، والزاوية.

ثـم تـولّى مـصر أبـو بكـر محمـد بـن أبـى محمـد طُغْـج، المعـروف بالإخشيد[٧١] الفرغـاني الأصـل[٧٢]، وكـان عنـد بعـض أهـل مـصر عبـد خَصِيّ اسمه كافور[٧٣]، فاشتراه بثمانية عشر دينارًا عـلى مـا رواه العلّامـة

---

[71] ولاة مصر في عهد الدولة الإخشيدية هم:

- أبو بكر محمد بن طغج، تولّى في رمضان سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م، وتوفي بدمشق في ذي الحجة سنة ٣٣٤هـ /٩٤٦م.
- أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد من سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م وتوفي سنة ٣٤٩هـ/٩٦١م.
- أبو الحسن علي بن الإخشيد، تولى سنة ٣٤٩هـ / ٩٦١م، وتوفي في ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م.
- أبو المسك كافور (حادم الإخشيد) من ٣٥٥هـ / ٩٦٦م، وتوفي سنة ٣٥٧هـ /٩٦٨م. وقد سقطت مصر في أيدي الفاطميين بعد وفاته بعام واحد.
- أبو الفوارس أحمد بن علي الإخشيد من ٣٥٧هـ /٩٦٨م حتى دخلها القائد جوهر الصقلي في شعبان ٣٥٨هـ / يونيو ٩٦٩م.

[72] فرغانة: من بلاد ما وراء النهر، و هي أيضًا من بلاد الأتراك، والتي استوطنها الكثير من الفرس.

[73] كان كافور عبدًا أسود حبشيًا أو نوبيًّا من عبيد الإخشيد، وكان مخلصًا له، فجعله الإخشيدي وصيًّا على ولديه وكان قد عهد إليه بتربيتهما ورعايتهما. وكان عبدًا خصيًّا. و كان لقبه (الأستاذ) و لم يُلقب بالإمارة أبدًا حتى بعد أن تولّى حكم مصر.

ابنَ خَلِّكان[74] في ضمن ما يُشْتَرى ويُبَاعُ من العبيد والجواري لدور الولاة والحكام، فترقّى عنده إلى أن جعله آتابكَ[75] ولديه، أبو القاسم وأبو الحسن.

ثم توفي الإخشيد، وتولى بعده ولده أبو القاسم، فقام كافور بتدبير المملكة له إلى أن توفي، وتولّى بعده أخوه أبو الحسن، واستمر كافور أيضًا على نيابته إلى أن توفي لإحدى عشرة ليلة خَلَت من المحرم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة. وقد كان كافور اختبر البلدة، وعرف انحطاط مدارك كثير من أهلها بِسَبْر أحوالهم السابقة، فاستقل

---

[74] ابن خلكان: هو أحمد بن محمد إبراهيم بن خلكان، البرمكي، ولد سنة ثمان وستمائة في مدينة إربل، وكان شافعي المذهب، ودخل مصر وسكنها مدة، وولي القضاء بها، ثم سافر إلى دمشق، وولي القضاء بها أيضًا.. و توفي ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان سنة إحدى و ثمانين وستمائة للهجرة.

[75] آتابك: كلمة تركية مأخوذة من "آتا" بمعنى أب، و معنى آتابك الوصي أو المؤدب لأمراء الأتراك، ثم صار لقبًا ثابتًا يُطلَقُ على الأمراء الأقوياء. وفي عصر المماليك في مصر كان يطلق هذا اللقب على الأمير الذي كانت تعهد إليه إمارة العسكر، ومنه جاء لقب: أتابك العساكر.

بالمملكة من هذا التاريخ، وأعدّ لنفسه خِلَعًا[76] وادّعى أنها وصلته من بغداد.

وأنّى لخليفة يؤمن بالله واليوم الآخر، أو في دولته من يعرف حديث رسول الله: (من ولّي منكم امرءا عملًا وهو يعلم أن في قومه من هو خير منه استحق حرب الله ورسوله وجماعة المسلمين)[77] ويوليه؟!.

ليس الأمر كذلك، وإنما وجد غنمًا بلا راعٍ فسطا عليها، وعاث فيها، واستقلّ بها، وهان على أهل مصر ما يشقّ على غيرهم من تغلّب الأَسْود، واستبداده، فقصدوه، وتطاولت إليه الأعناق، ووفدت عليه المدائحُ، ومدحه منهم الشعراء.

---

[76] الخِلَع: جمع خِلْعة، و هي الثياب الذي تُلبسَه لأحد ما. و المقصود هو ثياب الملك والولاية الذي يرسله الخليفة للوالي.

[77] الحديث: انظره بصيغ مختلفة في البخاري: جمعه ٢٩، ومناقب ٢٥، ومناقب الأنصار ١١، وانظره أيضًا في صحيح مسلم: إمارة ١٩، وأحمد بن حنبل ١:٦، ٢٨٩، ٣:٤٤١، ٤٨.، ٥:٢٣٩، ٦:٩٣، ٢٥٧، ٢٥٨.

ثم ابتلاها الله بالخلافة الفاطمية[٧٨]، وهي شر خلافة أُخرجت للناس، خلافة لفظها المغربُ، وما رضيها المشرقُ، خلافة مقتتها

[78] دخل الفاطميون مصر مع جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ، وتولى مصر حوالي أربع سنوات. وحكم مصر من الخلفاء أحد عشر خليفة، وهم:

- المعز لدين الله أبو تميم معد ٣٦٢هـ، وتوفي سنة ٣٦٥هـ.
- العزيز لدين الله نزار أبو منصور من ٣٦٥هـ وحتى ٣٨٦هـ.
- الحاكم بأمر الله المنصور أبو علي من ٣٨٦هـ وحتى قتل في ٤١١هـ.
- الظاهر لدين الله علي أبو الحسن، من ٤١١هـ وحتى ٤٢٧هـ.
- المستنصر بالله معد أبو تميم، من ٤٢٧هـ وحتى ٤٨٧هـ.
- المستعلي بالله أحمد أبو القاسم من ٤٨٧هـ وحتى ٤٩٥هـ.
- الآمر بأحكام الله المنصور أبو علي من ٤٩٥هـ وحتى قتل في ٥٢٤هـ.
- الحافظ لدين الله عبد المجيد أبو الميمون من ٥٢٤هـ وحتى ٥٤٤هـ.
- الظافر بأمر الله إسماعيل أبو منصور من ٥٤٤هـ وحتى قتل في ٥٤٩هـ.
- الفائز بنصر الله عيسى أبو القاسم من ٥٤٩هـ وحتى ٥٥٥هـ.
- العاضد لدين الله عبد الله أبو محمد من ٥٥٥هـ وحتى ٥٦٧هـ

الشريعةُ، ورضيتها الشيعةُ. فكان أول حادث من حوادثها أنها غيرت مذهبَ المالكية بمذهب الروافض[٧٩] وقبلت بذلك الناسُ.

ثم جاء الحاكم[٨٠] وهو الثالث من خلفائها، فتولّاها وهو حَدَث، لا يتجاوز الإحدى عشرة سنة، فبقيت البلاد تحت سَطْوة جهله وطُغْيان وزيره برجوان[٨١]. غشيت عينَ العلم والدين والمسلمين واليهود والذِّمِّيِّين ظلماتُ ظلمهما واستبدادهما وكفرهما وعنادهما.

---

[79] الروافض: مذهب شيعي، يجيز الطعنَ في الصحابة، سموا بذلك لأنهم رفضوا قول زيد بن علي حينما نهاهم عن الطعن في أبي بكر وعمر بن الخطاب. وكان مذهب مصر قبل دخول الفاطميين هو المذهب المالكي.

[80] الحاكم بأمر الله، هو الثالث من الخلفاء الفاطميين، تولى الخلافة بعد موت أبيه — كما قدمنا — وكان مولده بالقاهرة في يوم الجمعة السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة.

[81] برجوان: هو الاسم الصحيح كما أثبتنا في المتن و هو — طبقًا لابن إياس — القائم بتدبير أمور القاهرة في معظم أيام الحاكم، وبرجوان هذا هو صاحب الحارة المعروفة باسمه، وكان الحاكم لا يتصرف في شيء إلا برأي برجوان، فما أطاق الحاكمُ ذلك فندب إليه من يقتله وهو في الحمام.

وظهر في مُدَّته مذهبُ الضِّرارية[82] لرئيسه ضرار، أستاذ حمزة، وفتح سِجِلًّا لكتابة أسماء المؤمنين الكافرين، فكتب له من أهلها بالتسليم ألوفٌ مؤلفة، وتأسس مذهبُه، وثبت في النفوس، وأصبحت عبادته دينًا يدين به، فضلًا عن سَفْك دمائهم بغير ذنبٍ ولا سبب، وأوامرِه التي لا تُعقل، وكتب:

"بسم الحاكم الرحمن الرحيم"

وكان يُسجَد له، ويقال له: يا واحد يا أحد، يا محيي يا مميت.

وتقوم الناس عند ذكر اسمه على المنبر. وأصدر أمرًا إلى نُوَّابه بأن يفعلوا ذلك في جهاتهم.

---

(82) مذهب الضرارية: هو المذهب المنسوب لضرار بن عمرو الغطفاني و هو قاضٍ من كبار المعتزلة خالف المعتزلة في بلده فكفروه و طردوه، له حوالي ثلاثين كتابًا بعضها في الرد عليهم و على الخوارج.

وهكذا حتى أصبحت الخلافةُ في أيامه ملعبةَ لاعب، إلى أن تنبهت أختُ الحاكم[٨٣]، وقد افتتن الناس من الضلالة حتى استجازوا دعوى الربوبية والألوهية فكان ذلك تنطسًا[٨٤] في الكفر، وجمعًا للمعصية، وإنما كان أهل الجاهلية يرفعون إلى النبوة ولا يجاوزونها إلى سواها.

---

[83] أخت الحاكم هي: ست النصر، وكان الحاكم قد بلغه عنها أمر هي والأمير سيف الدين بن دواس، فاتفقا معًا على قتله، وهو يصطاد في حُلوان.

وليس صحيحًا أن المصريين رضَوا بحكم الحاكم بل إن كل الشواهد التاريخية تؤكد أنهم رفضوا هذا الحكم، وقد روى ابن إياس أخبارًا وأشعارًا تؤكد ما نذهب إليه، من ذلك ما ردده المصريون حينما ادعى الحاكم الربوبيةَ وعلْمَ الغيب، فقالوا:

بالجور والظلم قد رضينا وليس بالكفر والحماقةْ

إن كنت أوتيت علمَ غيب بين لنا كاتب البطاقةْ

و كانت هذه الورقة قد كُتبت و لصقت بالمنبر في مكان يقعد فيه الحاكم.

[84] التنطس في الشيء: التعمق فيه واستقصاؤه.

ثم جاء بعده المستنصر[٨٥]؛ ففسق وترك أمورَ الحكومة تُدارُ بيد أمِّه، الأمَةِ السوداء، ويد مولاها اليهودي[٨٦]، الذي باعها لأبيه الظاهر، ويد صالح بن رزيك[٨٧]، الأرمني الأصل، وغيرهم، كما تراه مبيَّنًا في

---

[85] الخليفة التالي للحاكم هو الظاهر لدين الله، ثم المستنصر، و المستنصر هـو الخليفة الفاطمي الخامس، ولد سنة ٤٢٠هـ، و تولى الخلافة و عمره سبع سنوات، و توفي يوم الخميس ثاني عشر ذي الحجة سنة سبع و ثمانين و أربعمائة.

[86] أم المستنصر جارية اسمها: السيدة رصد، ومولاها اليهودي المشار إليه هو أبو سعيد، أو أبو سعد سهل بن هارون التستري، وكان قد استخدمه الظاهر أبو المستنصر لبيوعه فباع عليه في جملة ما باع جارية سوداء، تحظاها الظاهر، فولدت له المستنصر، فراعت ذلك لأبي سعيد، و قدمته عند ولدها المستنصر لما صارت الخلافة إليه، فعظم شـأنه إلى أن صار ناظرًا في كل شؤون الدولة.

[87] هذا خطأ واضح من المؤلف، فالوزير الذي تحكم في أمر مصر وقتَ المستنصر هو بدر الجمالي. أما صالح المذكور، فهو: الصالح طلائع بن رزيك فقد كان صاحبَ الأمـر و النهي لكن أيام الخليفة الفائز الذي تولى الخلافة سنة ٥٤٩ هـ و حتى ٥٥٥ هـ.

مواضعه إن شئت. ثم ولي بعده ابنه الظافر[88]، وسنّه سبع عشرة سنة، فأفرط في الفسق حتى ضاق الأمر بوزيره[89]، وأراد أن يخلص من ذلك، وتخلص له الخلافة من جميع الوجوه، فقتله وقتل أخويه. وولي ابنه الفائز[90]، وعمره إذْ ذاك خمس سنين، ثم جمع الأمراءَ لمبايعته.

وحمله على كتفه وأمرهم بالطاعة والانقياد، فصاحوا بالإجابة صيحةً شديدة؛ لإظهار مزيد الطاعة، ففزع لها الخليفةُ حتى بال على كتف الوزير، وصُرِع، وكان داءه[91] الذي مات به.

---

(88) الظافر ليس ابن المستنصر، بل هو الظافر إسماعيل بن الحافظ عبد المجيد بن الآمر بأحكام الله المنصور بن المستعلي بالله أحمد بن المستنصر، وقد تولّى الظافر هذا الخلافة سنة ٥٤٤ هـ وقُتل سنة ٥٤٩ هـ.

89 الوزير المشار إليه هو: ركن الدين المظفر أبو منصور عباس بن تميم، وزير الظافر وهذا الوزير هو الذي قتل الخليفة الظافر بالاشتراك مع ابنه نصر بن عباس.

(90) الفائز هو الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر بن الحافظ، وهو العاشر من خلفاء الفاطميين، بويع بالخلافة بعد مقتل أبيه، ويذكر ابن إياس أن عمره وقتها كان نحو ست سنوات، ومات الفائز يوم الجمعة سابع رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وله من العمر حوالي اثنتي عشرة سنة.

(91) في نسخة المخطوط: داؤه، والأقرب إلى الصواب نحويا ما أثبتناه.

ثم انحطَّت الحالة إلى أن كانت مصر تدفع للصليبين جزيةً عظيمة في القدس ليكفوا الغارة عن غزة وعَسْقَلان.

ثم قوي الخلل واستفحل أمره، وظهر الفساد في البلاد والعباد وكثر الولع بالملاهي، والبعد عن الدين والسياسة، والاقتناع بالمعيشة الكاذبة، وعدم المبالاة بما يتهددهم من إبادة ملكهم وبلادهم في أيام العاضد[92] آخر خلفاء الفاطمية حتى تقهقرت الحالة، وكثرت الخوارج، ونحن نسرد لك شيئًا منها، لتعلم أن في أهل هذه البلاد من يسير مع كل قائد. وإن جاوزنا بهذا الأمر حدَّ المنحى الذي نحوناه في هذه الورقات.

---

(92) العاضد: هو العاضد بالله أبو محمد عبد الله بن الحافظ بن المستنصر بالله. وهو ابن عم الخليفة الفائز، وهو آخر خلفاء الفاطميين، تولى الخلافة وعمره أربع وعشرون سنة. وكان القائم بتدبير مملكته الوزير الصالح طلائع بن رزيك فأقام في الوزارة إلى أن قتله جماعة من العبيد الزنج، وكان ذلك في رمضان سنة ٥٥٦ هـ، وتولى بعده شاور بن مجير.

دخلتْ سنةُ ثمان وخمسين وخمسمائة، فجمع شاور[٩٣] - صنيعةُ الصالح طلائع بين رزيك الأرمني المتقدم ذكرُه، وكان واليًا على بلاد الصعيد - جُموعًا كثيرة من أهاليه، ووافقوه على السير، وخرجوا على العادل بن طلائع بن رزيك[٩٤]، سيدِه، وكان العاضد مستوزرًا له، وما زالوا في أثره حتى أمسكوه وقتلوه، وأقروا شاورًا بَدَله في الوَزارة.

ثم لم يلبث حتى خرج عليه رجلٌ من أهل الصعيد، يُقال له: الضرغام[٩٥]، يروم منصبه، فجمع جموعًا كثيرة أيضًا، وسار بهم نحو

---

[93] شاور: هو شاور بن مجير أبو شجاع السعدي آخر من تولى من الوزراء في العصر الفاطمي، قتله صلاح الدين. وكان شاور ماكرًا، وكان مقتله يوم السبت السابع عشر من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة.

[94] العادل بن طلائع بن رزيك، وقد خانه شاور وشنقه، وكان ذلك سنة سبع وخمسين وخمسمائة.

[95] هو أحد وزراء العاضد، واسمه أبو الأشبال الضرغام بن عامر بن سوار، وقد كان من ثقات طلائع بن رزيك، وكان وثيق الصلة ببني رزيك، ومع ذلك كان من أهم حلفاء شاور الذين عملوا على إسقاط رزيك بن طلائع. وقد قتله العامة بعد فراره من المعركة أمام شيركوه وصلاح الدين، وكان ذلك عند مدفن السيدة نفيسة في سنة ٥٥٩ هـ، وقطع رأسه وحملوه في طرقات القاهرة، ولم يدفن جسده إلا بعد ذلك بثلاثة أيام.

شاور، فوافقه جماعة على حربه، وما زالوا معه حتى غلبه، وقُتِل ولده، واستولى الضرغام على مكانه، وتولى الوزارة، ومكَّنوه منها كما فعلوا مع شاور من قبلُ، قال القاضي بهاء الدين في السيرة الشَّدَّاديَّة الصلاحية[٩٦]: "وهذه عادة المصريين، إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب وعجز عن دفعه، وعرفوا عجزه، خضعوا للقاهر ومكَّنوه، وهذه قواعدهم المستقرة فيهم من أول أزمانهم"[٩٧].

---

[96] القاضي بهاء الدين، هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد وُلد في الموصل سنة ٥٣٩ هـ، وتوفي في حلب سنة ٦٣٢ هـ. اتصل بصلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ عندما ولّاه صلاح الدين قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف، ومن وقتها لم يفارق صلاح الدين أبدًا حتى وفاة صلاح سنة ٥٨٩هـ ،ومن هُنا كانت سيرة صلاح الدين التي كتبها القاضي بهاء الدين وسمّاها: (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية).

[97] كان ضروريًا أن نذكر هنا مقولة القاضي بهاء الدين للكشف عن اللعب بالألفاظ الذي يقوم به المؤلف.. يقول: "وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب، وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه، وقعوا للقاهر منهم، ورتبوه ومكّنوه؛ فإن قوتُهم إنما كانت بعسكر وزيرهم، وهو ملقب عندهم بالسلطان، وما كانوا يرون المكاشفة، و أغراضُهم مستتبة، وقواعدُهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال". انظر سيرة صلاح الدين:.٣٦

ثم بعد أن قُهِر شاور على هذا المثال، وأُخرج من القاهرة، اشتَدَّ في طلب الشام، قاصدًا نور الدين محمود بن زنكي[٩٨] مستصرخًا به، ومستنصرًا بعزمه على أعدائه.

قال المؤرخ صاحب حَماة تاجُ الدين شاهنشاه بن أيوب: وقد وصل إليه، واجتمع به، وعاهده على بذل ثلث أموال مصر له بعد رزق جندها إن أعاده إلى الوزارة.

---

[98] نور الدين بن زنكي: تلقَّب بالشهيد في كتب التاريخ، وعدَّه اليافعي من الأولياء الأربعين، تولى الملك بعد مقتل أبيه سنة ٥٣٩هـ، وكان أسد الدين شيركوه وأخوه أيوب وصلاح الدين بن أيوب من عمال نور الدين محمود، وقد توفِّي نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ. فقد ظلَّ لمدة ثلاثين عامًا سلطانًا على دمشق ومنطقة الشام.

فسيّر نور الدين أسدَ الدين شيركوه[99]، ومعه صلاح الدين[100] ابنُ أخيه، وقصدوا مصر، وكان لدخولهم فيها وقعٌ عظيم، وخاف الناس سوءَ العاقبة، فاتحدوا مع شاور المطرودِ بالأمس، ووازروه، ونصروه على خصمه، وأعانوه على هزيمة عسكر ضرغام وقتلِه، وقُتل عند قبر السيدة نفيسة.

---

(99) أسد الدين شيركوه: هو عمّ صلاح الدين وأحد أهم قواد الملك عماد الدين زنكي، وكذلك ابنه نور الدين محمود. توفي أسد الدين بعد أن تولى وزارة مصر، وقد مات فجأة وكان ذلك في سنة ٥٦٤ هـ، وقد اختلف في سبب موته؛ فقيل: بمرض الاختناق، وقيل: بسبب ابتلاعه قطعة من اللحم الذي كان يحبه، وقيل: دُسَّ له السُّمّ في الأكل.

(100) صلاح الدين: هو السلطان الذائع الصيت صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان جديرًا بهذا الصيت الواسع في التاريخ نظرًا لفتوحاته وحروبه ضد الصليبيين، وُلد تقريبًا سنة ٥١٨ هـ في تكريت، عمل في خدمة السلطان نور الدين محمود، وشارك عمَّه في حروبه في مصر، ثم تولّى الوزارة بعد عمه أسد الدين شيركوه، ثم تسلطن على مصر والشام وكانت مدة سلطنته على مصر والشام حوالي أربع وعشرين سنة، بما فيها أيام الملك نور الدين، توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ، ودُفن في دمشق في مدرسة مجاهد الدين.

وأعاد أسدُ الدين شاورَ إلى مركزه ومرتبته، وقرر له قواعدَه، وأقرَّ أمره، ثم طالبه بوفاء وعده وعهده، وأداء نذره، فلم يفِ، فسار شيركوه ودخل بلبيس، وأقام فيها حتى يتم ما تعاهدا عليه، فنبض في شاور عرقُ الخيانة، ولم يجد أمامه من يستنجده إلا النصارى. فاستنجد بالصليبين[101] على خِيرة المسلمين، الذين لا ذنبَ لهم إلا نجدته.

فلبته الإفرنج[102]، وجاءت لإخراج أسد الدين. واجتمع شاورُ بعساكر المصريين واتحد معهم فأطاعوه على حصار شيركوه ببلبيس فَحُصِرَ ثلاثة أشهر، واشترك المصريون مع الصليبين، وهذه حالة لم يُعهد لها مثيل أبدًا، ولو نزل الإنسان بهذه الطائفة حتى ساواها بالنصارى في كل شيء لما أمكنه أن يُخْلِيَها من النقيصة والعار، لعدم

---

[101] من المتعارف عليه أن تسمية الجيوش الأجنبية التي غزت المنطقة العربية في العصور الوسطى بالصليبيين هي تسمية المؤرخين والسياسيين الأوروبيين، أما العرب فكانوا يسمونها: حروب الفرنجة أو الإفرنج.

[102] هذه هي التسمية العربية لهذه الجيوش التي جاءت لغزو المنطقة العربية.

تذكرها سابقةَ المعروف، ولكن ماذا يبلغ كيدُ هؤلاء المجرمين بأسد الدين؟!

فإن الأمر لم يكد يبلغ نور الدين بالشام حتى تحرَّك حركةَ البطل إلى جهة مصر، وبلغ الإفرنجَ ذلك، فسارعوا في مراسلة أسد الدين في الصلح، وفتحوا له، وخرج بعسكره خروجَ البدر من السحابة، وسار إلى الشام سالمًا غانمًا، ليدبر أمرَه؛ لأنه غرس في قلبه حب إنقاذ هذه الديار من شر خلفائها وظلم وزرائها، لأنها تدار بغير رجال، والأمور تمشي فيها بمجرد الإيهام والمحال، فأخذ أسد الدين يتحدث بذلك، وبلغ شاورَ فداخله الخوف، وعلم أن أسد الدين لابد له من قصْد البلاد، فكاتب الإفرنج، وقرر معهم أنهم يجيئون إليها، ويمكّنهم منها تمكينًا كُلّيًا، ويعينوه على دفع أعدائه عنها.

فلما تجهز أسد الدين وصلاح الدين بالعسكر وجاءوا إلى مصر في اثني عشر من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة، كان وصولهم مقارنًا وصولَ الإفرنج أيضًا، فاتفق شاور مع بعض رجال مصر، واتحد الإفرنج على أسد الدين، ووقعت بينهم وقعات شديدة،

وانتهت على مصالحة الإفرنج لأسد الدين على أن ينصرفوا عن مصر، ويعود هو إلى الشام أيضًا، فقبل ذلك للضعف الذي سرى في عسكره من شدة القتال، وسار إلى الشام وهو على مَضَض، وقلبه مُقَلقَلٌ على البلاد، شديد الخوف عليها من الإفرنج، لأنهم كشفوها كما كشفها، وعرَفوها كما عرفها.

ثم لم تلبث الإفرنج أن نكثت عهدَها، ونقضت جميع ما استقر بينهم وبين أسد الدين من الصلح والقواعد، وقصدت البلادَ طامعة فيها، فخاف أسد الدين ونور الدين سوءَ العاقبة عليها، فخرج أسد الدين بماله وأهله ورجاله، وأعانه نور الدين بما أعانه به من المال والرجال، وأحسَّ شاور، وقايس بين جيوش الإفرنج، وفَيَالِق المسلمين، وتحقق أن النصارى لا قِبَل لهم بهذا العسكر، فأخذ يستصرخ ويستنجد بأسد الدين شيركوه واتفقت معه أهل البلاد على ذلك، وأحرق الفسطاطَ[١٠٣] بشؤم رأيه، وانتقلت الناسُ إلى القاهرة،

---

(103) احترقت الفسطاط سنة ٥٦٤هـ حينما جاء الفرنجة إلى دمياط وأشار الوزير شاور على الخليفة العاضد بحرق مدينة الفسطاط خوفًا من أن يملكها الفرنجة فأذن الخليفة في حرقها، فجمع شاور طائفة من العبيد وأحرقوها، وظلت النار مشتعلة فيها حوالي شهرين، فكان يُرى دخانها من مسيرة ثلاثة أيام.

ومعهم النصارى من أمام عسكر أسد الدين، ودخلها دخولَ الملك الفاتح، وأقام شاور يتردد إليه، وهو يلعب بكرة النصارى مرة، وبصَوْلَجَان المسلمين أخرى، حتى بدا من أمرِ نفاقه ما لا يمكن احتمالُه، فاتفق صلاح الدين وعز الدين[١٠٤] وقبضا عليه في طريق الإمام الشافعي، وأخذا بتَلابيبه، وأنزلاه إلى الأرض، فأمر أسد الدين بأن ينزل في مكانٍ منفردٍ رَيْثَما ينكشف أمر الأمة من جهته خشيةَ الفتنة، فما تسامع الناس بذلك إلا وجاء التوقيعُ من المصريين على يد خادمٍ خاص بأن لابد من حزّ رأسه جرْيًا على عادتهم في وزرائهم، وقاعدة تقرير من قوي منهم على صاحبه، فحُزَّتْ رَقَبَتُه، وأُنفِذ رأسُه إلى العاضد.

ثم توفّي أسد الدين، وتولّى صلاح الدين، وكان قد ضجر من شكل هذه الخلافة، وسَئم حالَ العاضد، وأنِف من أن تكون الخطابة باسمه، فحوّل الخلافة للعباسيين، ليجمع رابطة الدين ويُوحِّد قبلةَ

---

[١٠٤] عز الدين، هو: عز الدين جرديك، أحد قواد أسد الدين شيركوه. وقد قام بالقبض على شاور هو وصلاح الدين.

آمال المسلمين، فخطب بأمر نور الدين للخليفة المستضيء بالله[105] من بني العباس، ولم يَنْتَطِح في هذا الأمر عَنْزانِ.

ثم ما زالت هذه النفوس تَستميت حتى بلغ من أمرها أنها قبلت حكمَ الملكة شجرة الدر[106]، ولا يُعلم في المسلمين امرأةٌ ارتقت إلى سرير الملك، وحكمت أمة مثل هذه الأمة غيرها.

ثم تداولتها دولةُ المماليك[107]، وكفى بهذا الاسم، وهذا العهد مُؤَذِّ كبير لانتقاص الأُمَّة وفك أسرها لو كان فيها بعض الحياة المطلوبة، فإن المسوِّغ الشرعي ظاهرٌ للعيان غير محجوب، والقوم لا

---

[105] المستضيء بالله: هو أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله بن المستنجد، توفي وله من العمر تسع وثلاثون سنة وشهران ونصف الشهر.

[106] شجرة الدر: أرمنية الأصل، أعتقها نجم الدين أيوب وتزوجها، تولت عرش مصر بعد موت زوجها ومقتل ابنه تورانشاه. لم يقبل الناس حكمها بحكم أنها امرأة فاضطرت للتخلي عن الحكم لزوجها عز الدين أيبك. وقد حكمت مصر ثمانين يومًا فقط. وقتلت سنة ٦٥٤هـ.

[107] بدأت دولة المماليك في مصر عقب مقتل تورانشاه، وزواج المعز أيبك من شجرة الدر، وكانت بداية حكم المماليك في مصر سنة ٦٤٨هـ وهي سنة تولى المعز أيبك الحكم. وانتهت دولة المماليك بالغزو العثماني لمصر وكان ذلك سنة ٩٢٣هـ أي أنهم حكموا مصر ٢٧٥ سنة. وكان عدد الحكام المماليك الذين حكموا مصر من المعز أيبك إلى طومان باي أربعة وخمسين حاكمًا.

ينتسبون إلى مصادر الحكومة بأدنى حُجَّة. ولم يمكنهم منها إلا قوةٌ غالبة، والخليفةُ العباسي الذي لا يحتاج لأكثرَ من تأييده موجودٌ بين أيديهم وفي بلادهم، ولكنهم عَمُوا وصَمُّوا عن صاحب الحق.

وما زالت تتداولهم هذه الأيدي واحدًا بعد واحدٍ حتى أتى زمنُ الغوري[108].

الذي أصله من مماليك الأشرف الظاهر[109]، ثم انتقل إلى الأشرف قايتباي[110].

---

[108] الغوري، هو: السلطان الأشرف قانصوه الغوري تولى ٩٠٦هـ وحتى ٩٢٢ هـ قتل في موقعة مرج دابق الفاصلة بين المماليك والعثمانيين.

[109] هو السلطان الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهري الرومي تولى سنة ٨٧٢هـ، و عزل نفس العام بعد شهرين من توليه.

[110] الأشرف قايتباي، هو: الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتباي المحمودي الظاهري، تولى الحكم من سنة ٨٧٢هـ وحتى ٩٠١ هـ حيث تنازل عن العرش لابنه محمد، وتوفي في اليوم التالي.

وكان السلطان سليم العثماني[111] يقاتل العجم لكراهته انتشار[112] مذهب الشيعة وقطعًا لِفشوه الشديد وانتشاره في ذلك الوقت. فلم يكن من الغوري إلا أن تحالف مع الشاه إسماعيل[113]، لمحاربة

---

[111] هو السلطان سليم خان بن محمد بن مراد بن بيلدرم بن أورخان بن أردن علي بن عثمان بن سليمان بن عثمان الكبير هزم الشاه إسماعيل واستولى على العراق والشام ومصر وقتل قانصوه الغوري وطومان باي، وعين خاير بك على مصر وخاير بك أحد المماليك الذين خانوا قانصوه الغوري.. ومن الواضح لمتتبع أحداث سنة ٩٢٢هـ أن العثمانيين انتصروا على المماليك باستخدام سلاح الخيانة.. ومن الطرائف أن سليمًا العثماني كان يسمي خاير بك هذا باسم: خاين بك. وقد توفي السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٦ هـ وتولى بعده السلطان سليمان القانوني.

[112] في نسخة المخطوط: في انتشلر.

[113] هو الشاه إسماعيل الصوفي ملك العراق.. وكانت أهم المعارك التي دارت بين الشاه إسماعيل وبين سليم العثماني سنة ٩٢٠هـ وانتصر فيها العثمانيون، وعلى إثر هذه المعركة تحالف الشاه إسماعيل مع التتار، ويبدو أن هذا التحالف هو السبب الذي جعل مؤلفنا يقول: وكان السلطان سليم العثماني يقاتل العجم. وكان تدخل قانصوه الغوري في هذه المعارك تدخلًا محسوبًا، و لصالح مصر، فقد روى ابن إياس أن قانصوه الغوري لما سمع بأمر المعارك المتكررة بين الشاه إسماعيل وسليم العثماني... "اجتمع بالأمراء في الميدان وأقاموا في ضرب مشورة بسبب ذلك إلى قريب الظهر، وقد أشيع بأن السلطان الغوري قال: أنا أخرج بنفسي وأقعد في حلب حتى نرى ما يكون من أمر الصوفي وابن عثمان فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا".

السلطان سليم مع بُعد ما بين الطرفين، ولكن الله سبَّبَ ذلك، وجَعَلَه عِلَّةً لما أراد بهذا البلد، وزيادةً في خطيئات تلك الطائفة، فحمل السلطان سليم على مصر وافتتحها بعد محارباتٍ طويلةٍ، ووقائعَ قَتَل فيها المسلمون بعضُهم بعضًا بسيوف الأغراض والمطامع.

وانقسم المصريون على أنفسهم حتى صاروا يضربون جيش الغوري – وهو منهم - من خلفه والأتراكُ تضربه من أمامه. وسارع جماعةٌ منهم لينالوا حظوة فأنزلوا المدافع من القلعة، وانتهت هذه الحالة بدخول العثمانيين إلى مدينة القاهرة في سنة ٩٢٣ هجرية، وكان بها من خلفاء بني العباس محمد المتوكل على الله[١١٤]، فأخذه السلطان سليم معه بعدما تنازل عن حقّه في الخلافة الإسلامية، واستلم منه الآثار النبويّة الشريفة، ومفاتيحَ الحرمين. وتسبب عن هذا الفعلِ الذي منشؤه مصرُ مَحْوُ الدولة العباسية من لوحِ الوجود وانقطاعُ اسمها ورسمها، والإجهازُ على بقيَّتها وإعدامها.

---

[١١٤] هو الخليفة محمد المتوكل على الله بن أبو الصبر يعقوب المستمسك، وقد تولى الخلافة سنة ٩٢٣ هـ وقد تنازل عن الخلافة بأمر من سليم العثماني.

نقول ذلك مع اعتقادنا أن السلطان سليم خيرٌ منه؛ لأنه يعمل في خير الإسلام ما لا يفعله ذلك الخليفةُ، ولا يستوي القاعدون والمجاهدون، ولكن (أنفُك منك، ولو أجزم).

ثم استمرت تحت يد عمال الأتراك كما رضخت لغيرهم من قبلُ، حتى كان من غارة الفَرَنساويين عليها[115] .وجاء الجيش التركي، وفيه المرحوم محمد علي باشا[116].

واستُخلصت من الفرنساويين، فاتفق مع الرؤساء من أهل مصر، وما زالوا يكتبون ويختمون حتى ولَّوْه عليها، ولم يُوَفَّقوا لالتماسها لواحدٍ من أعظمهم.

---

(115) يقصد الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨م. وكما يبدو فإن تسمية المؤلف للحملة باسم غارة هي تسميةٌ أكثر قربًا للحقيقة من تسمية حملة التي تبعد بالحادث عن معانيه السلبية الحقيقية من الاحتلال والظلم.

(116) محمد علي باشا: ولد بمدينة قولة بمقدونيا سنة ١٧٦٩م، وصل مصر سنة ١٨٠١م، وتولى حكم مصر عام ١٨٠٥ بفضل القوى الشعبية المصرية. يعد محمد علي هو رائد نهضة مصر الحديثة حيث عمل على بناء جيش قوي وأصلح من حال التعليم والزراعة. وتوفي محمد علي سنة ١٨٤٩م.

ثم بدت منه هَنَاتٌ، هاجر بسببها بعضُ أهل مصر للشام، فكان ذلك سببًا لحدوث حربٍ بين والي الشام ووالي مصر أدَّتْ لدخول الدولة العليّة فيه، فقضت عليها الحالة شرَّ قضاء، وخبّت[117] فيها المصريين ووضعت، وقتل المُسْلِمُ المُسْلِمَ، مع علم الكل أن الغايةَ الغرضُ والطّمَعُ النفساني، وتسبب من ذلك تداخلُ أوربا في شئون الدولة، وعقدت معاهدةً مع الروسيا، سُمِّيَت بمعاهدة "هونكار اسكله سي"[118].

تعهَّدَت فيها الروسيا بالدفاع عن الدولة لو هاجمها والي مصر، وكان لها بذلك تداخلٌ في الشئون، وفقدت الدولة جميع مراكبها التي سلَّمها قبودانها[119] للولاية المصرية.

---

[117] الخبت من الأرض: المنخفض، ويبدو أن المؤلف يقصد: أن هذه الأحداث وضعت من شأن المصريين. أي أن الحالة خبّت المصريين، أي وضعت.

[118] هونكار اسكله سي: المقصود المعاهدة السرية التي عقدت بين تركيا وروسيا سنة ١٨٣٣م.

[119] قبودانها: قائدها.

فطمع فيها العدو، واتحدت أوربا لقهر والي مصر، وسرى نفوذُ الروسيا في الشرق حتى أرادت إنزال عسكرٍ في مدينة سينوب الواقعة على شاطئ البحر الأسود بالأناضول بدعوى إسعاف الباب العالي لو أراد الجيشُ المصري الزحفَ على القسطنطينة، ولولا ما أراده الله من بقاء دولة المسلمين لَتَمّ على الدولة ما تَمّ بهذا السبب، فكأن هذه الطائفةَ ساعيةٌ وراء دول المسلمين لدمار الدين، فلا تتكون لهم دولةٌ إلا ويكونون سببَ نقمتها.

ثم جرت بعد ذلك بلايا أخرى نحن في محنها للآن.

والذي رأيته من شتم مولانا السلطان فرعٌ من فروعها، وهي شجرةُ تركيا الفتاة[120] التي زُرِعَتْ بيد كبيرٍ من أمراء مصر[121]، وأربابِه الآن يردون لمصر سُؤْرَ[122] كاسها، وفضل أنفاسها، ومصر تقول لهم: "هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا، لأنها إن تكن هناك وُجدت، فإنها هنا

---

[120] تركيا الفتاة: حركة إصلاحية تأسست في عهد السلطان عبد الحميد، وكان تأسيسها سنة ١٨٨٩م.

[121] المقصود هو الأمير مصطفى فاضل أخو الخديوي إسماعيل.

[122] السؤر: بقية الشيء.

ولدت أو تكن هناك ثبتت فمن هنا نبتت، والمطّلع على هذه الحوادث التى نشأت في هذه البلاد المبتدئة أولها من تأتأة[123] الإسلام..والمتأمل لما جرى من بعض أهل مصر يعْجَبُ كلَّ العجب، ولا يصدق أن أمة لها نصيبٌ من العقل، يكون فيها من يجاري عبد الله بن سبأ، أوّلًا على مقتضى منتحَله في كراهة عثمان ا، ثم ينقاد ثانيًا لرأى معاوية بن خَديج لما يناقض فَعْلَتَه الأولى، وهو موالاة عثمان ﷺ.

وكيف لا يَعْجَبُ من سذاجة هذه العقول التي ليس بعدها سذاجة، حيث تبدت بادئَ بَدء في الخروج على الخليفة، والائتمار على قتله، ثم أخذت ثانيًا إلى قتل العامل المولى عليهم، وهو على رأيها إن صحّ ما نسب له.

فإن كان الائتمار على قتل عثمان ﷺ هو الحق، فلم يُقتَلُ قاتِله بعد؟ وإنما هو واحد منهم.

- وإن كانوا على غير الحق في تلك، فلِم فعلوها؟

---

[123] تأتأة الإسلام: يقصد بدايته، وتأتأ: كرر التاء إذا تكلم، وتأتأ: تبختر شجاعة أو كبرًا. وتأتأ الطفل: مشى.

والأغرب من ذلك؛ أن قومًا يُقاضون عثمانَ بن عفان، ويقتلون ابن أبي بكرٍ عاملَهم - وهما من مُصَاصِ[124] الخلافة ومعْدنِ الحكم الإسلامي - يرضخون بعدها لحكم العبد الخَصي، ويرضَونه قائمًا عليهم، حاكمًا آمرًا فيهم، وهو في كلِّ حركةٍ من حركاته، وحالةٍ من حالاته يَظهرُ للأمَّةِ سوءٌ عظيمٌ في عدم استحقاقه في ولايته، فضلًا عما نبه به خواطرَهم حكيمُ الشعراء أبو الطيب أحمد بن الحسين[125] في وصفه له بقوله:

ومثلُكَ يُؤتَى من بلاد بعيدة ليُضحك رباتِ الحِجال البواكيا[126]

---

[124] المصاص: خالص كل شيء. يقال: فلان مصاص قومه إذا كان أخلصهم نسبًا، يستوي فيه الواحد والاثنان والمذكر والمؤنث.

[125] هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي. ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ. زار مصر سنة ٣٤٦هـ ومدح كافور الإخشيدي، ولما لم يرضه كافور هجاه وفارقه ليلة عيد الأضحى سنة ٣٥٠هـ. وكان كافور وعده بولاية بعض أعماله، فلما رأى افتخاره بنفسه خافه، وقال: يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ أما يدعي المملكة مع كافور. وتوفي المتنبي في شهر رمضان سنة ٣٥٤هـ.

[126] في رواية أخرى: ليضحك ربات الحداد.

وفي النسخة (هـ): ربات الحجال البواسي والصحيح كما أثبتنا وأول هذه القصيدة:

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا وما أنا عن نفسي ولا عنك راضيا

أمينًا وإخلافًا وغدرًا وخسة وجبنًا؟! أشخصًا لحت لي أم مخازيا؟!

وما بَاكَتَ[127] به أهلَ مصر بسببه في قوله لهم:

أغايةُ الدين أن تَحْفــوا شواربَكم

يـا أمة ضحكت من جهلها الأممُ؟![128]

وكيف لا تضحك منها الأمم وقد قبلت ولاية العبد، ورضخت له، واستعبدها، وأطاعته، وحكمها ورضيت به، وهى لا تُحِسُّ في هذه الأحوال بعارٍ ولا شنار[129].

فكـأن لم يكن بين الحجون إلى الصفـا

أنيـسٌ ولم يَسْمُـر بمكـة سامــــرُ[130]

---

(127) باكته: قرعه بالحجة.

(128) البيت من بحر البسيط. وأول هذه القصيدة:

من أية الطرق يأتي نحوك الكرم   أين المحاجم يا كافور والجلم

جاز الألى ملكتْ كفاك قدرهـــم   فعرِّفوا بك أن الكلب فوقهـــم

(129) الشنار: الأمر المشهور بالشنعة والقبح وغالبًا ما يجمع بين العار والشنار.

(130) البيت في النسخة (هـ):

فكأن لم يكن بين الحجون أنيس   ولم يسمــر بمكــة سامــرُ.

وصحته كما أثبتناه وكما ورد في النسخة (م). والبيت لمضاض الجرهمي. وهو من بحــر الطويل.

كأن لم يكن بين أهل مصر رجلٌ يستحق أن ينازعه في أمر، أو يمتاز عنه في شرفٍ أو يفوته بتدبيره وفكره، أو يحسن من أمر المُلك ما استبدّ به. ما هذه الألعوبة المحجوبة؟! يا روح ولا جسد، يا صوت ولا أحد.

تبدلت الأيام حتى لِخَلتها

ستبدي غروبَ الشمسِ من حيث تطع[١٣١]

ثم انظر إلى الحالة التي انحطت لها بعد ذلك إلى أن أصبحت تُعطي الصليبين الجزيةَ، فالعَجَبُ كلُّ العجب من أمّةٍ كلما تقدمتْ في مراتب الزمن تأخرتْ في خاصة نفسِها. ففي أهلها كثيرٌ، هم أتْباعٌ مع الأكثرية والغلبة، ولو أدى ذلك للفساد، وحسبُك نصرةُ شاور على العادل، ثم نصرة الضرغام عليه، ثم نصرته على الضرغام، ثم اتفاقهم مع الصليبين على المسلمين من العبث الذي لا يجوز لعاقلٍ أن يفعله.

---

(131) هكذا ورد البيت في النسخ الخطية، وصوابه:

تبدلت الأشياء حتى لخلتها ستثني غروب الشمس من حيث تطلع.

والبيت لأبي تمام، حبيب بن أوس بن حارث الطائي (١٨٨ – ٢٣١ هـ). والبيت من بحر الطويل.

هذا ما قرأناه وسمعناه، ويصدقه ما رأيناه، فإن الحوادث الأخيرة تُذكِّرنا بحالةِ تلك الأيام، هذا فضلًا عن معالجة الأبواب المقفلة، وتحريك البلايا الساكِنة، وإيقاظ الفِتن المُستمية، وقَرْعِ الآذان بصوتِ البُومِ والغُرابِ الذي لا يَدُلّ إلا على الخراب. والناسُ يستمعون وهم لاهون، ويتكلّمون وهم لا يفهمون.

ملاعبُ جنةٍ لو سار فيها　　سليمانٌ لسارَ بتَرجُمانِ[١٣٢]

وإني مُتَعَجِّبٌ من قولك: "ظهر الفساد في هذه البلاد".

لأني لم أدرِ متى كانت صالحةً حتى تفسد، لأن الذي يسمع بأوَّلِها لا يَعْجَب من حال آخرها؛ فهي مسكينة في شقاء دائم، وتعاسة مستمرة، والزمنُ الذي رماها بالمصائب تمكنت بَراثِنُه من قبضَتِها، ولم تتمكن من تخليصها منه لا الأمويةُ ولا العباسية، ولا الأيوبية، ولا

---

(132) البيت للمتنبي، وقد قاله في وصف شِعب بوان في أثناء قصيدة في مدح عضد الدولة بن بُوَيْه. والبيت من بحر الوافر. وأول هذه القصيدة:

مغاني الشعب طيبًا في المغاني　　بمنزلة الربيع من الزمان

ولكنَّ الفتى العربي فيها　　غريبُ الوجه واليد واللسان.

التركية. وقد بقيت الآن في خَلَفٍ كجلدِ الأجْرَبِ، تئِنُّ تحت يدِ الأجنبي، ولها العذر في كل ما تفعله؛ لأنها مقهورة على أمرها ولو أرادت الخيرَ ما قَدَرت عليه، والمعترض على الأجنبي في ظهور هذا المنكر في مدته كالمعترض على النار في حرقها، والمياه على روائها، والعقربِ على لسْعَتِه، والثعبانِ على لدغته[١٣٣]؛ لأن هذا شأنه في كل بلدٍ يحتله.

نعم.. إن الذي لاقته الأتراك من بعض أهل مصر لم يَلْقَه صالحٌ من ثمود، ولا النصارى من اليهود؛ لأن فضلَ التركي يدخل في جَوف كل مبغض، ويخرج من عينه، وكفى بالأوقاف وعطيّاته من مُرتباتٍ وخيراتٍ وجِراياتٍ فضلًا ظاهرًا[١٣٤] والمحسن، ولكن الجميل عند أغلب [أهل] [١٣٥]هذه البلدة وراء جدار، والهفوةُ نارٌ على نار.

---

[133] في النسخة م: لدغته.

[134] في النسخة م: فضلا ظاهرا.

[135] ما بين المعقوفتين سقط من م.

فإن شُتِم أميرُ المؤمنين، [وسُبَّ][136] خليفةُ المسلمين فقد شُتم الذين خَلَوْا من قبله في هذه البلاد التي لا يعرف الكثيرُ من أهلها اسمَ الإمامِ والحاكمِ إلا إذا كان مقرونًا بالقوَّة والبطش.

ولقد صدق من قال:" كلُّ شيءٍ يَدخُلُ في مِصْرَ ينحَطُّ عن مرتبته"؛ فقد رأينا ذلك حتى في الأمور التي لا يَتَطرَّقُ لها الفسادُ كالشورى[137] والحكوماتِ المسئولة[138] وغيرهما.

---

(136) ما بين المعقوفتين سقط من م.

(137) صدرت اللائحة الأساسية لمجلس شورى النواب في ٢٢ أكتوبر ١٨٦٦م على أن يختار الأعضاء في الريف من المشايخ وفي المدن باتفاق أغلبية الأعيان. وتكون المجلس من خمسة وسبعين نائبًا. وفي الشهر التالي وتحديدًا في ٢٥ نوفمبر افتتح المجلس لأول مرة برئاسة إسماعيل راغب وبحضور الخديوي إسماعيل الذي أسس مجلس شورى النواب بهدف تقوية وضعه وزيادة الثقة الائتمانية في مصر في لندن وباريس. وإشاعة التأييد الشعبي لنظامه.

(138) في ٢٨ أغسطس ١٨٧٨م تم تشكيل أول مجلس وزراء في مصر باسم مجلس النظار برئاسة نوبار باشا، وكان بهذه الوزارة وزيران أجنبيان هما: ريفرس ويلسن للمالية، ودي بلينيير للأشغال. وقد جاء في نص الأمر الخديوي لهذا المجلس: أنه هيئة مستقلة عن الحاكم تشاركه في الحكم، وتتحمل مسئوليته معه، وأن الأعضاء متضامنون في المسئولية وتكون قراراته بالأغلبية، ولا يحق للخديوي أن يرأسه.

الجرائد[139] في بلاد الأمم الأخرى مزارع للكمال، ومنابت للشَّرَف، ونجومٌ لهداية الناس، وهي - كما مثَّلها بعضُهم - أشجارٌ ذوات أثمار مباحةٍ على قارعة الطريق، يأكل منها الصادر والوارد[140]، فما بالها قد نزلت عن رتبتها في هذه البلاد؟! وصار يتأذّى منها؛ لأنه لم يُضرب بين حريتها المطلقة وبين الأعراض الشريفة بسورٍ من الحكمة.

أصبحت السُّكْنى في بلاد الوحوش الضارية، والهوامِّ اللادغة أهونَ على العاقل من سُكْنى هذه البلاد؛ فإن تلك يمكن التوقِّي من ضررها بسدِ نافذةٍ وإغلاقِ بابٍ، ولكن بما يتّقي الناسُ شرَّ ثرثار مقطوعِ المعاشِ، وقد أغواه شيطانه من الإنس بكأسين من عقار[141]،

---

[139] صدرت أول صحيفة مصرية في ٣ ديسمبر، وهي صحيفة الوقائع المصرية باللغتين العربية والتركية.

[140] الصادر والوارد؛ يقصد: الذاهب والآيب. يقال: طريق صادر وارد: يكثر فيه مرور الناس ذهابًا وإيابًا.

[141] عقار: خمر.

أو درهمين من دينار، وسلَّطه على شرفٍ عالٍ، له في ثَلْمِه[142] قصدٌ دنيءٌ. وويلٌ للشريفِ من السفيهِ.

إنا لا ندَّعي علم الغيب، ولكن نحكم، ويحكم معنا كلُّ عاقلٍ أن هذه الطوائف لو تُركت تقول لابد أنها تصول على المقامات السامية في هذه الحكومة، ولو أَخذَت الحكومة على يدها إذ ذاك لرميت بالغرض لنفسها، وأول هذا الأمر لخصوص نفسها، لا لإقامة العدل والقانون، وثَبَتَ للناس أن الحكومةَ لا تُحِسّ بالألم إلا في ذاتها.

وقد أطلنا اللسان حتى مسسنا به الصدورَ، وضربنا به الجنبَ، وكان يكفي النزْرُ[143] من هذا القدر، ولكن هذا قضاؤه أزلًا، وقدره أوَّلًا، ولعنة الله على الأصل المشير بهذا الأمر، المثير لهذا الشر، والمشيع الفاحشةَ بالباطل على أولياء الأمر، لعنة تلتَحِفُه، وتبطنه، وتجاوره،

---

(142) ثلم الجدار: أحدث فيه شقًّا، وثلم الإناء: كسر حرفه. والثَّلْمُ عند العروضيين: حذف الفاء من فعولن.

(143) في النسخ الخطية: النذر بالذال المعجمة. وصوابها كما أثبتنا حسب السياق. والنذر: ما يقطعه المرء على نفسه. أما النزر فهو الشيء القليل.

وتسكن معه، فيقوم بها ويرقد عليها، ويعيش فيها، ولا يفرّ منها؛ فإن نام نبَّهَتْه، وإن استيقظ صَبَّحَتْه، وإن مشى سايَرَته، وإن سافَرَ زامَلَتْه، وإن أقام جاوَرَتْه، وإن قعد جالسته، وإن أكل أو شرب هنأته، وإن عطس شمَّتَتْه، فلا يفارقه المقتُ أبدًا، وما ذلك على الله بعزيز.



رصد لحركات التمرّد والثورة على الحاكم
في مصر في القرن التاسع عشر

	٢ / ١٧٩٨/٧	الحملة الفرنسية.
	١٣/ ١٧٩٨/٧	معركة شبراخيت.
	٢١/ ٧ /١٧٩٨	موقعة إمبابة (الأهرام).
	١٧٩٨/٨/١١	معركة الصالحية.
	١٧٩٨/٨/١٣	مقتل ثمانية فرنسيين بالقرب من السالمية مركز فوَّة، فأحرق الفرنسيون القرية.
٦-	١٧٩٨/٨/٢٥	حرق قرية علقام ومصادرة الماشية والغلال، إحضار أهلها إلى القاهرة رهائن بسبب مقتل ستة عشر فرنسيًّا من جنود الحملة الفرنسية
	١٧٩٨/٩/٦	إعدام محمد كُرَيِّم في ميدان الرميلة بالقلعة.
-	١٧٩٨/٩/١٦	هاجم المصريون القوات الفرنسية بالقرب من دمياط.
	١٧٩٨/٩/١٩	حرق الجمالية نتيجة معركة الجمالية.
	١٠-١٧٩٨/١٠/١	معركة اللاهون.
	١١-١٧٩٨/١٠/٧	معركة سدمنت بالفيوم.

١٢- ١٧٩٨/١٠/٢٠	احتجاج المصريون على الضرائب التي فرضها الفرنسيون، واجتماع حوالي ثلاثين من قادة المصريين واتفاقهم على بدء الإضراب في اليوم التالي بإغلاق المحلات، ودعوة أكبر عدد من التجار والصنّاع للذهاب إلى مركز القيادة للاحتجاج.. كان هذا هو أول مؤشرات ثورة القاهرة الأولى.
١٣- ١٧٩٨/١٠/٢١	أول أيام ثورة القاهرة الأولى.
١٤- ١٧٩٨/١٠/٢٢	مقتل الكولونيل سيكوسكي في الثورة، وسقوط ما بين ألفين إلى ألفين وخمسمائة قتيل مصري - حسب تقديرات الثورة.
١٥- ١٧٩٨/١١/٣	إعدام شيوخ الثورة الأولى.
١٦- ١٧٩٨/١٢/٢٥	احتلال الفرنسيين لأسيوط.
١٧- ١٧٩٩/٢/٢٨	ثورة أهالي بردين، مركز بلبيس. وقد كادوا يهزمون الفرنسيين رغم الفرق الواضح في مستوي التسليح.
١٨- ١٧٩٩/٣/٣	هجوم أهالي قنا علي جنود الحملة الفرنسية، ومقتل مجموعة من الفرنسيين من بينهم موراندي القائد.

١٩- ١٧٩٩/٣/٥	معركة الصوامعة، وسقط من المصريين حوالي ألف شهيد ماتوا غرقًا في النيل.
٢٠-٨،٩/٣/١٧٩٩	معركة قفط وأبنود، وسقط من المصريين ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ شهيد مصري.
٢١- ١٧٩٩/٤/١٦	ثورة بني عدي في أسيوط ضد الفرنسيين.
٢٢- ١٧٩٩/٤/١٨	معركة بين الفرنسيين وبني عدي، سقط فيها من المصريين حوالي ألفي شهيد.
٢٣- ١٧٩٩/٥/٣	معركة سنهور قرب دمنهور، وسقط من المصريين حوالي ألفي شهيد.
٢٤- ١٧٩٩/٥/٥	احتلال الفرنسيين لدمنهور وإحراق منازلها، وسقوط ما لا يقل عن ثلاثمائة مصري.
٢٥-١٧٩٩/٥/٣٠	مهاجمة المصريين لسفينة حربية فرنسية في ميت غمر، والاستيلاء على أربعة مدافع.
٢٦- ١٧٩٩/٦/٥	معركة كافور نجم بميت غمر.. وإحراق الفرنسيين لميت غمر واستشهاد مائة وثلاثين مصريًّا.

٢٧- ١٨٠٠/٣/٢٠	بداية ثورة القاهرة الثانية، ومن أهم ملامح هذه الثورة أن الثوَّار حاولوا تصنيع البارود والقنابل وإقامة عدة ورش لإصلاح المدافع والأسلحة، وقد جمع الثوار الحديد اللازم لذلك من المساجد والمحلات.
٢٨-١٨٠٠/٦/١٤	مقتل كليبر على يد سليمان الحلبي.
٢٩-١٨٠٠/٦/١٦	إعدام سليمان الحلبي وشركائه.
٣٠-١٨٠٠/٦/٢١	إغلاق الجامع الأزهر، وحتى ٢/ ٦/ ١٨٠١ في أثناء جلاء الحملة.
٣١- ١٨٠٣/١٠/١	فرض البرديسي ضريبة على التجار وأصحاب الحرف، فثاروا، وأغلقوا المحلات، وطلبوا تخفيف الضريبة بالرشاوى فخُفِّفَتْ عن بعضهم.
٣٢-١٨٠٤/٣/١	تبدأ ثورة الشعب على المماليك بسبب الضرائب والقسوة في تحصيلها، وكان البرديسي قد فرض ضريبةً جديدةً على العقارات فامتنع المواطنون عن الدفع، وثاروا في الشوارع وهم يحملون الدفوف، وأغلقوا المحلات، وذهب الشيوخ إلى الوالي وكانت

	هتافاتهم في المظاهرة: أيش تاخذ من تفليسي يا برديسي.
٣٣-١١/٣/١٨٠٤	كانت ثورة الشعب ضد البرديسي مازالت مستمرة، فانتهز محمد علي ذلك، وحاصر بجنوده بيت إبراهيم بك وبيت البرديسي بالناصرية، وكذلك بيوت بقية المماليك بالقاهرة.
٣٤-١٢/٣/١٨٠٤	استمر حصار محمد علي لبيت البرديسي، إلا أن البرديسي هرب. وأصدر أمرًا بإلغاء الضريبة الجديدة، ومات في هذا اليوم حوالي ثلاثمائة وخمسين مملوكًا.
٣٥ - ١/٥/١٨٠٥	ثار الشعب المصري على الحكم التركي وذلك نتيجة اعتداء جنود الجيش التركي على أهالي مصر القديمة، وإخراجهم من بيوتهم، ونهبها وقتل البعض، واحتشد عددٌ كبيرٌ من أهالي الأزهر، وذهب وفدٌ من شيوخ الأزهر إلى خورشيد باشا يطالبونه بوضع حد لأفعال الجنود، واتفقوا على رحيل الجنود عن المدينة بعد مُهْلَة ثلاثة أيام.

٣٦- ٢/٥/١٨٠٥

لم يقنع الجماهير بما تم التوصل إليه مع خورشيد باشا فزادت أعمال الثورة، وتوقف العلماء عن إلقاء الدروس في الأزهر، وأُغْلِقتْ المحلات، واعتدى المتظاهرون على الوكيل الوالي بالضرب بالحجارة وهو عائدٌ من مقابلة العلماء لحلّ المشكلة من منزل الشيخ الشرقاوي.

٣٧- ١١/٥/١٨٠٥

تظاهر المواطنون في الشوارع، وباتوا فيها نتيجة عدم خروج الجنود من المدينة بعد انقضاء المُهْلَةِ المحددة لهم.

٣٨- ١٢/٥/١٨٠٥

ذهب المتظاهرون والعلماء إلى بيت القاضي لاختصام الوالي وكانوا يهتفون:

يا رب يا متجلي أهلِك العثملّي. وأرسَلَ الوالي للعلماء للتفاوض إلا أنهم رفضوا.

٣٩- ١٣/٥/١٨٠٥

اتفق زعماء الثورة على تعيين محمد علي واليًا علي مصر بدلًا من خورشيد، وجاء الفرمان التركي في ٩/ ٧/ ١٨٠٥ بالموافقة على قرار الشعب.

٤٠-١٨٠٥/١٠/١٩	ذهب عمر مكرم إلى محمد علي يطلب منه تخفيف ضرائب كان قد فرضها على أهالي رشيد، الذين جاءوا إلى القاهرة معترضين على هذه الضرائب، فخفَّضَها محمد علي إلى النصف.
٤١-١٨٠٦/٥/٣٠	ثار الناس وذهبوا إلى عمر مكرم يشكونه الملتزمين الذين يجمعون الضرائب بمنتهى القسوة.. فوعدهم عمر مكرم بإخبار محمد علي، والتكلُّم معه في هذا الأمر.
٤٢-١٨٠٦/٨/٣	عمر مكرم يتكلم مع محمد علي نيابة عن المتظاهرين من أهالي المنصورية بالجيزة في نهب بيوتهم ومواشيهم من قِبَل حسن أغا الشماشرجي وجنوده، فأمر محمد علي برد ما نهبوه إلى أصحابه.
٤٣-١٨٠٧/٣/١٧	دخل الإنجليز إلى الإسكندرية فيما يسمي بـ: حملة فريزر.
٤٤- ١٨٠٧/٣/٣١	يثور المصريون في رشيد على جنود حملة فريزر، ويقتلون مائة وسبعين ويأسرون مائة

وعشرين، هذا غير الجرحى، وتراجع الباقون إلى الإسكندرية.

٤٥- ١٨٠٧/٤/٢١ معركة أبو حماد، ينتصر فيها المصريون على الإنجليز ويُقتل القائد الإنجليزي ماكلود، بالإضافة إلى أربعمائة وستة عشر قتيلًا انجليزيًّا غير الأسرى.

٤٦- ١٨٠٨/٨/٢٠ يثور الشعب وزعماؤه على محمد علي نتيجة فرضه ضريبة على كل أنواع الحبوب والأغذية التي تباع في الأسواق، ونتيجة فرضه أيضًا ضريبة كَلَفة الذخيرة على الأراضي الزراعية، وتوزيعه مائة وستين قريةً على أولاده بحُجَّة أنها عاجزة عن السداد.

٤٧- ١٨٠٩/٨/٩ اتهم عمر مكرم محمد علي باختلاس أموال الضرائب، فعزل عمر مكرم من نقابة الأشراف، ونُفِي إلى دمياط.

٤٨- ١٨٠٩/٨/١٣ المواطنون يودِّعون عمر مكرم وهو يسافر إلى دمياط ليلًا.

	طوال هذا العام ومعظم مناطق الصعيد في ثورة دائمة ضد القوات التي تَجبي الضرائب..
٤٩-ـ/١٨٢١	وقد أحرق محمد علي عدة قرى، وقتل الكثيرَ من الثائرين وتمّ إخماد الثورة بمنتهى الوَحْشيّة.
٥٠-٢٩/٣/١٨٢٢	فرض محمد علي ضرائب جديدة لتجهيز حملته على كريت، فثارت القاهرة واجتمع الثوَّار في الجامع الأزهر، وقد أخمد محمد علي الثورة بالقوة واتهم عمر مكرم بالتحريض على الثورة.
٥١- ٥/٤/١٨٢٢	نفي عمر مكرم للمرة الثانية.
٥٢-ـ/٥/١٨٢٣	ثورة عارمة في المنوفية نتيجة التجنيد الإجباري والضرائب التي فرضها محمد علي.
٥٣-ـ/٤/١٨٢٤	ثورة مجموعة كبيرة من القرى من إسنا إلى أسوان لنفس أسباب ثورة المنوفية، واستمرت الثورة أكثر من شهر.

٥٤-ـ/٤/١٨٣٨	ثورة أهالي منفلوط بسبب التجنيد الإجباري، ورفضهم تقديم المجندين المطلوبين.
٥٥-١٨/٢/١٨٧٩	أول مظاهرة لضباط الجيش احتجاجًا على تأخير مُرتَّباتِهم، سار في المُظاهَرة مع الضباط أربعة أعضاء من مجلس شورى النواب.
٥٦-١٩/٣/١٨٧٩	طالب تسعة وأربعون نائبًا من مجلس النوّاب تخفيض الضرائب المرهقة للمواطنين.
٥٧-١٨/٤/١٨٧٩	أسس عبد الله النديم الجمعية الخيرية الإسلامية في الإسكندرية، ومن أهدافها التعليم المجّاني لكل أبناء وبنات الشعب والأيتام والفقراء تحديدًا. ومن المعروف أن النديم كان حتى هذا الوقت ضمن أعضاء جمعية مصر الفتاة.
٥٨-١٦/١/١٨٨١	اختار الضباط المجتمعون في منزل أحمد عرابي، اختاروا عرابي رئيسًا لهم للعمل في سبيل التخلص من ظلم وزير

الحربية ضدهم.

٥٩-١/٢/١٨٨١	ثورة الضباط في قشلاق عابدين؛ بسبب محاكمة زملائهم في قصر النيل.
٦٠-٩/٩/١٨٨١	مظاهرة الضباط في قشلاق عابدين.
٦١-٣١/٣/١٨٨٢	إضراب عمال تفريغ الفحم في بور سعيد، ثم توالت الأحداث بين الجيش والخديوي والإنجليز، التي انتهت باحتلال الإنجليز لمصر في نفس العام.
٦٢-١١/٦/١٨٨٢	مذبحة الإسكندرية بين المصريين من جهة والمالطيين واليونانيين من جهة أخري، وقد سقط عددٌ كبيرٌ من القتلى.. والمعروف أن هذه الحادثة هي حجة التدّخل الانجليزي في مصر.
٦٣- ١٣/٧/١٨٨٢	اعتداء الأهالي في طنطا والمحلة على بعض الأوروبيين.
٦٤- ٣/١٢/١٨٨٢	محاكمة عرابي أمام محكمة عسكرية وحُكِم عليه بالإعدام ثم خُفِّفَ إلى النفي المؤبد.

٦٥- ١٠،٧/١٢/١٨٨٢	أحكام مشابهة على قواد الثورة الآخرين.
٦٦- ١٤/١٢/١٨٨٢	مصادرة أملاك زعماء الثورة.
٦٧- ٢٠/١٢/١٨٨٣	اتهام سعد زغلول بتكوين جمعية سرية هي جمعية الانتقام لاغتيال عملاء الاحتلال، قبض عليه، واعتقل ثلاثة أشهر، ثم أُفْرِج عنه لعدم وجود دليل ضده.
٦٨- ٢٠/٣/١٨٨٧	يثور أهالي قرية الكنيسة ويقبضون على ضابطين قَتَلَا قريبًا لهم، وأخذ البوليس الضابطين منهم، وحوكم عددٌ كبيرٌ من الأهالي بالجَّلْد وأحكامٍ أخرى أمام أهالي القرية.
٦٩- ـ/٥/١٨٩٤	إضراب عددٍ كبيرٍ، ومظاهرات حاشدة شارك فيها ألفان وخمسمائة من الفحّامين في بور سعيد، وقد تدخّلت الأساطيلُ الحربية الإنجليزية والفرنسية لفضِّ المظاهرات.

٧٠-١٨٩٥/٧/٢١	مظاهرة استُخْدِم فيها الطوب من المواطنين ضد القوة الإنجليزية أثناء رجوعهم بعد دفن أحد موتاهم في مدافن الكاثوليك، وكانت المظاهرة في السيدة زينب، وحوكم بعض المتظاهرين بالسجن والغرامة.
٧١-١٨٩٧/٩/١٧	حادثة دنشواي الصغرى، ومُلخَّصها أن بعضًا من أهالي قليوب قذفوا بعض الجنود الإنجليز أثناء عودتهم من القناطر الخيرية. وحوكم بعض أهالي قليوب أمام المحكمة المخصوصة وحكم عليهم بالسجن والنفي إلى السودان.
٧٢-__/١٨٩٩/١٠	إضراب عمَّال الشركة الخديوية للملاحة احتجاجًا على استقطاع جزءٍ من أجرهم.
٧٣-__/١٨٩٩/١٢	إضراب عمّال معامل السجائر بالقاهرة.

مظاهرة من عمال معامل السجائر في القاهرة أمام محل فانيادس، وكانوا حوالي ثلاثمائة عامل..

٧٤-٦/٢/١٩٠٠	وهذه المظاهرة امتدادٌ لإضرابهم الذي بدأ في ديسمبر ١٨٩٩م. و قد انتهى هذا الإضراب في ٢١/ ٢/ ١٩٠٠م.
٧٥-ـ/٩/١٩٠٠	إضراب عمّال شحن وتفريغ الفحم بميناء الإسكندرية؛ للمطالبة بزيادة الأجور وخفض ساعات العمل إلى اثنتي عشرة ساعة.
٧٦-ـ/١١/١٩٠٠	إضراب عمال شركة ترام الإسكندرية للمطالبة بترقيتهم إلى درجة مفتِّش مثل الأجانب، والحدّ من خصم الغرامات وخفض ساعات العمل.

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس قوافي الأشعار

يــا أمة ضحكت من جهلها الأمـــمُ ١٤٢

٧- مـلاعب جنّة لــو سار فيهـــا

سليـــانٌ لســـــار بتَرجمـــــان ١٤٤

٨- ومثلُك يؤتى من بلادٍ بعيـــدةٍ

ليُضحِــكَ ربــاتِ الحول البواكيـا ١٤١

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس القبائل والأمم والمِلَل والنِّحَل

فهرس الوقائع الحربية

فهرس الكتب الواردة في النص

المحتـــوى

المؤلف في سطور

الاسم: هشام عبد العزيز

الخبرات

- سكرتير تحرير مجلة العصور الجديدة، دار العصور للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠.
- سكرتير تحرير مجلة الفن المعاصر، أكاديمية الفنون، القاهرة، ٢٠٠١
- مسئول نشر بوحدة الإصدارات، أكاديمية الفنون، منذ ٢٠٠٢ وحتى الآن.
- كاتب بمجلة العدالة، لجنة الاتصال بنقابة المحامين المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦.
- سكرتير تحرير مركز المعلومات والتوثيق ودعم اتخاذ القرار. أكاديمية الفنون. ٢٠٠٥/ ٢٠٠٦
- محرر بالقسم الثقافي بجريدة القبس الكويتية (مكتب القاهرة) ٢٠٠٧/ ٢٠٠٨.

المؤتمرات العلمية

- المؤتمر الدولي الثاني للمأثورات الشعبية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١.
- مؤتمر أدباء مصر، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، بور سعيد، ٢٠٠٥.
- مؤتمر أدباء القناة وسيناء، محافظة السويس، ٢٠٠٧ .
- مؤتمر السير الشعبية العربية بين الشفاهية والتدوين والتواصل.. كلية الآداب جامعة بني سويف. في الفترة من ١٤ وحتى ١٦ مارس ٢٠١٠.

المشاركة في المشروعات العلمية

- مشروع جمع وتوثيق نصوص السيرة الهلالية، الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية، بالتعاون مع مؤسسة اليونسكو، ٢٠٠٥.

الأعمال المنشورة

- تاريخ مكة (جزآن)، تحقيق بالاشتراك، دار مصطفى نزار الباز للنشر، مكة المكرمة، ١٩٩٦.

- شفاء الغرام (جزآن)، تحقيق بالاشتراك، دار مصطفى نزار الباز للنشر، مكة المكرمة، ١٩٩٦.
- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق، دار مصطفى نزار الباز للنشر، مكة المكرمة، ١٩٩٦.
- ألف ليلة وليلة بالعامية المصرية، تحقيق بالاشتراك، دار الخيال للنشر، القاهرة، ١٩٩٧.
- كتاب النساء، تحقيق بالاشتراك، دار الخيال، القاهرة، ١٩٩٨.
- الغناء والرقص في الإسلام: دراسة وتحقيق، دار الخيال للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠.
- المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب: تحقيق بالاشتراك، أكاديمية الفنون، القاهرة، ٢٠٠٦.
- موسوعة نجيب محفوظ والسينما في الصحافة العربية، مدير التحرير التنفيذي، أكاديمية الفنون، ٢٠٠٦.